

محاسن الحواتي

غرب القاش

(رواية)



غرب القاش

(رواية)

محاسن الحواتي

إصدارات دار إي-كتب

لندن، كانون الثاني - يناير 2019

The west of Al-Ghash

By: Mahasin Al-Hawati

All Rights Reserved to the author ©

Published by E-Kutub Ltd

Distribution: Amazon, Google Books, Play Store &
e-kutub.com

ISBN: **9781780584249**

First Edition

London, Jan. 2019

** * **

الطبعة الأولى،

لندن، كانون الثاني - يناير 2019

غرب القاش (رواية)

المؤلفة: محاسن الحواتي

الناشر: E-kutub Ltd، شركة بريطانية مسجلة في إنجلترا برقم: 7513024

© جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

لا تجوز إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب إلكترونياً أو على ورق. كما لا

يجوز الاقتباس من دون الإشارة إلى المصدر.

أي محاولة للنسخ أو إعادة النشر تعرض صاحبها إلى المسؤولية القانونية.

إذا عثرت على نسخة عبر أي وسيلة أخرى غير موقع الناشر (إي-كتب) أو

غوغل بوكس أو أمازون، نرجو إشعارنا بوجود نسخة غير مشروعة، وذلك

بالكتابة إلينا:

ekutub.info@gmail.com

يمكنك الكتابة إلى المؤلفة على العنوان التالي:

m733792@gmail.com

رمىة...

عشمانة الكرىم الراجىة من المولى

ما دايرة من مخلوق

ما طالبة من الدولة.....

(مكىة)

الفهرس

7	إهداء
9	النهارات البائسة
70	الرقصة المقدسة
81	أما دوا.. كسلا من مدن الجنة
90	يا زمان الوصل بسوق الخضار
95	العودة

إهداء

أمد إليك بهذا العمل الذي طالما انتظرته وتأخر كثيرا، انت التي غادرت دنيانا وترككتني وحدي أكتب بدمع عيني جزءا من حاكيا تعرفين مفاصلها جيدا وقد ساهمت في رفدها ببعض التفاصيل التي جمّلت هذا العمل، إن كان جميلا.. إليك أمد بروايتي الاولى وأنا اقبل يديك.. إليك يا عائشة بنت يوسف سعيد (ود القاش)، شكرا وعرفانا يا أمي والى كل من ساعدني في صياغة وتصحيح هذا العمل منهم المبدع الغربي عمران الذي تعاون كثيرا وتحمس أكثر لطباعة هذه الرواية كونها، على حد قوله، "تقدم عملا مختلفا عن كل قصصك السابقة"، والشكر للرائع الكاتب نبيل الخضر الذي اطلع على المسودة الاولى وأبدى ملاحظاته القيمة عليها والى شقيقي حسين الحواتي الذي كان يشاركني النقاش حول الشخوص وانسيابية العمل وغيره، وإهداء خاص الى روح أستاذتي في مدرسة (غرب القاش) الابتدائية ا. وردة لأحمد طاهر القيفي، اذ لخصت لها فكرة الرواية، فأعجبتها وسُرّت كثيرا كوني اعطيت (غرب القاش) قليلا مما اعطتنا، والشكر لكل من ساعد وتعاون وقال كلمة أو عبارة سلبا أو إيجابا فغرب القاش مكان ورواية وعالم بلا حدود يتسع لنا جميعا.

صنعاء في شتاء 2018م

النهارات البائسة

النهارات هنا لا تعرف الهدوء، والحر يُرغم كل الغمامات على الانسحاب عن سماءات لا لون لها، حتى إذا ما قهرت طويلا من ضراوة الشمس جاءت في فصل الخريف بأمطار غزيرة جدا وكأنه انتقاما، فالنقل عنادا.. ليتحول فصل الخريف إلى فصل سيول ورياح وعواصف بل كوارث تعري اشياء كثيرة. فالطبيعة وتقلباتها تتبارى هنا.. صيف حار يحرق الوجوه بعد أن يعتصر كل ذرة في الجسم حتى تجود بآخر ما فيها من عرق مالح وغزير، وتبدو الوجوه رغم سوادها لامعة، فيها مسحة من جمال وصبر. إنه الصبر الذي يسقي القسّمات المنهكة بلون الرضا، سماحة ومحبة. يصعب وصف الوجوه مع أن كثيرا من الأجانب قالوا لي أن أهل هذا البلد يتشابهون، وكسلا تحديدا فيها الملامح العربية واضحة، لست متأكدة من هذه الآراء وقد تكون صحيحة وقد تكون خاطئة. الصيف هنا يكون أقل وطأة من صيف الخرطوم الهالك، هذه وجهة نظر أهل كسلا الذين زاروا الخرطوم أو استوطنوا هناك، ربما لأن النهر الموسمي يمنح المدينة بعض النسمات الباردة وهي تحتضنه بقوة ولا مسافة كبيرة فاصلة بين المدينة بشقيها (الشرقي والغربي) والنهر، فهم في أحضان بعض كأنهما عاشقين، وفي نهارات الصيف الحارة يلجأ الناس إلى قضاء أوقاتهم وممارسة بعض أعمالهم تحت ظلال أشجار النيم العريقة التي توجد تقريبا في كل البيوت والشوارع وتفرد اغصانها إلى مسافات وكأنها تحتوي الناس في حميمية بالغة وتظلل عليهم

بحنو ملحوظ، أحيانا تطل على بيوت الجيران عندما تتماذى اغصانها وتمد نفسها فى أفق بلا حدود، ترحمهم من حر لا يوصف، رغم أن البعض هنا يحن إلى أشجار (الجميز) الأكثر ضخامة والتي لم يتبق منها إلا القليل والغريب انهم لا يعبؤون بأشجار (السدر) التي تنمو لوحدها وتحشر نفسها فى كل مكان وتفرض وجودها إلى أن تناطح أشجار النيم ومع ذلك تظل مهمة.. متى يتذكرونها؟ عندما يحتاجون بعض الحطب لبناء غرفة صغيرة أو عمل سرير أو كرسي أو أكثر أو عندما يشعرون بضخامتها غير المتوقعة، اما هي فتذكرهم بنفسها عندما تساقط الثمر الناضج عليهم وتطعم أطفالهم بألذ أنواع (النبق) الطري، وعندما يمرضون بالحمى يلجؤون إلى اوراقها للاستحمام بها والبعض يستخدم اوراقها فى العلاج بالقرآن.

عودة إلى النهارات الجافة والأبواب المفتوحة على مصرعيها فى احياء بأنها تستقبل كل الزائرين، النساء عادة يكن على أهبة الاستعداد لاستقبال الضيوف رجالا ونساء طوال اليوم تتغطى النساء بأثوابهن إلى وقت النوم ولا يبدو منهن إلا الوجه والكفين وجزء من الساقين..

النهارات صاخبة لأن الحر لا يسمح بعمل شيء ذهني مميز، فقط يتحدث الناس تارة عن السياسة وتارة عن غلاء المعيشة وما يدور فى الاسواق، وإذاعة أم درمان الوحيدة التي تبث أخبارا عكس الواقع، كان ذلك فى ثمانينيات القرن الماضي عندما بلغ الفقر مبلغا لا يوصف حيث وصل إلى أقصى درجات القسوة مع جفاف فى الأرض وفى الأرواح، كانت الاذاعة تغنى وتمدح النبي المصطفى (ص) ولا يبدو أن هناك من يملأه الأمل بغد مغاير أو مختلف،

والنشرات الإخبارية تتلو كل ساعة كلاما لا يلامس معاناة الناس ولا يناقش أمور حياتهم اليومية لذلك تظل أجهزة الراديو تعمل طوال النهار وبالليل لا يستمع اليها أحد كجزء من ضوضاء اعتادوا عليها وأصبحت جزءا من نسيج عام وإيقاع مألوف حيث تتداخل الأصوات ما بين باك وشاك، بين لاعن وشاتم وآخر وثالث ورابع وخامس يروي نكاتا سياسية من سخفها تمت من الضحك.

النهارات مازلت حارقة، الاحذية البلاستيكية المسماة (سفنجة) أو (سحسوح) لا تقي من حرارة الأرض المتعبة، بل تحيل الأقدام إلى أعضاء شبه محروقة مشققة وواهنة تستغرب كيف تمشي هذه الأعضاء وتعمل وقد ماتت منذ سنوات؟ النهارات المميتة تحيل الأرض جهنم والسراب تراه في كل الشوارع والاحواش بالفعل أنه سراب.. (كل ذلك بسبب نفوس الناس التي هجرها الخير وسكنها الحسد والشر) هذا ما قاله الشيخ حسب الله، لا اتفق معه لأنني لا أرى ما يحسد عليه وقد خلت البيوت حتى من رائحة البصل ومن معظم النعم، لكن اتفق مع تلك الفتاة المثقفة الانيقة التي لا يبدو عليها انها من هنا بل من هناك ظهرت الفتاة في التلفزيون وطلت من على الشاشة رأيتها لا تشبه النساء هنا وجهها وضاء كأنها ما صادفت الشمس ساقيتها، وقد انحسر الثوب عنها، ما أجملهن، غالبا عندما ينحسر الثوب عن سيقان النساء هنا ترى أعواد متحركة مع عصبة ناتئة أو عدة اعصاب نافرة من فرط الجهد والمشي، انها الان تحدث، انفرجت شفيتها عن أسنان بيضاء متراصة كاللؤلؤ وقالت كما لم يقل الشيخ حسب الله، قالت: (إن طبقة الاوزون والتغير المناخي هو السبب في هذا الجو الحار والجفاف و.... الخ) كلام كثير لم افهمه لكن اقتنعت أنه الحقيقة،

وقلت في نفسي وانا اشعر ببرودة تجتاح جسدي: (صح كلامها ربما يكون التغير المناخي سببا في كل مشاكلنا وهجرة ابي وعودته إلى بلاده تاركا وراه كوم عيال وأمهم الشابة التي يطمع فيها كل الرجال لأنها بلا زوج والتغير المناخي سببا في التعاسة أيضا على اعتبار أن كل الاشياء مترابطة ببعضها خاصة عندنا).

شعور قاتل عندما تنظر إلى من حولك وتجدهم عاجزين عن عمل أي شيء لتغيير واقعهم، حياتهم التعيسة التي لا جديد فيها، إلا أن مالك الموظف بوزارة الثقافة كان الوحيد الشجاع في هذه المنطقة فكان باستطاعته عمل الكثير حتى في مشيته لا يعبأ بأحد، يتمخطر ويغني ويصدر صفيرا رغم أن صوته عندما يغني يكون كأرملة ذكرت زوجها فبكت بصوت عال بعد صمت طويل. مالك كان يقوم بسرقة بعض الكراسي الفخمة من مكتب الوزارة ويقوم ببيعها في الحارة لبعض الأسر التي لا ترى في ذلك عيبا أو حراما، وفي الليل يشتري شرابا ويحتسيه ثم يشتم الحكومة بكل شجاعة وقوة قلب، وكان يخص حكومة كسلا ومسئوليتها وتجارها، لا أدري لماذا كان يلعن التجار ويتمنى زوالهم قبل زوال الحكومة؟ ربما لأنهم أخفوا السكر وأصبح يباع في السوق السوداء وبذلك هيمنوا على السلعة المهمة في حياة الناس إلى جانب الدقيق واعتدوا على طقوس وعادات السودانيين في شرب القهوة والشاي بالذات في شرق السودان حيث تدور فناجين البن طوال النهار في جلسات تمتد أحيانا إلى ما بعد المساء.. ليست هذه القضية، القضية هي أن الفقر كان عاما بحيث تلاحظ مظاهره في كل البيوت وبدت آثاره في كل الوجوه إلا القلة التي حباها الله بعض المال والتي لا يتجاوز عددها العشر أسر.. فهل هذه لعنة، أن يعيش المرء فقيرا بعد أن

ولد فقيرا وقد وُلد والداه ووالد والديه في الفقر ايضا؟ هل هو قدر أو امتحان كما يقول الصابرون في هذا البلد؟ إذا كان امتحانا فقد امتحنت ثلاث اجيال وكل امتحان أصعب من الثاني والنتيجة، مزيدا من الفقر والبؤس وإذا كان قدرا فالدعاء يغيره، ترى بماذا كانوا يدعون هؤلاء الفقراء؟ وإذا كانت لعنة فلنفتش في تاريخنا وأساطيرنا ربما نجد حلولاً أو نعرف الاسباب.. قد يكون جدنا المائة دعا علينا، وهو غاضب وقال في لحظة حزن وألم - انتصب واقفا وتوكل على عصاه الطويلة ثم رماها بعيدا في لحظة لا تتكرر، رفع كفيه المجدعتين نحو السماء وقال: (الله يجعلكم فقراء إلى يوم القيامة وهناك سوف نلتقي عند أرحم الراحمين) ثم نام بل مات موته الأخيرة.. لكن السؤال هو، ماذا فعلنا بجدنا هذا الله يرحمه حتى يغضب كل هذا الغضب؟ الله اعلم... أهم ما في الموضوع من هو جدنا رقم مئة صاحب الدعوة التي حلت بنا؟

النهارات مازالت تنفث حرارتها، وتبث كل ما في جوف الأرض من لهيب، والاغرب أن الأطفال يمشون حفاة، يلعبون ويمرحون في تراب الشوارع وكأنهم يلعبون على الجليد غير عابئين بحرارة الشمس ثمة طبقة سميكة تكونت فوق الأقدام الصغيرة جعلتهم لا يحسون بلهيب الأرض.. حتى أن حجة التومة علقبت بغيب ذات جلسة قائلة: (دليل ما أطفال الأطفال في التلفزيون ما شفوتهم، دليل لو ما ولدوهم يجوا براهم).

النهارات الحارقة تبلى الملابس القطنية وتذيب نسجها وتذهب ألوانها وتبدو باهتة كلون الحياة في كسلا. الأجساد المتعبة اعتادت على هذا الجو وتكيفت، الباصات العامة التي تقل الناس من وإلى وسط المدينة تتكدس بالركاب، أجساد متلاصقة وقد

يجدها بعض الشباب فرصة لملامسة أجساد انثوية ناعمة تبعث بملامستها بعض الراحة، رائحة العرق مختلفة كل حسب ما يتغذى، ويأكل رغم أن البطون نصف جائعة أو جائعة تماما إلا أن للعرق رائحة التعب والحزن معا، كسلا بلد التناقضات، قارة كبيرة تضم النهر والجبل، السهل والحقل هي وطن لمن لا وطن له أو لمن ترك وطنه ولم يعد له إلا كسلا تمنحه دفء الوطن وتشعره بذاته وبكيانه، لا تسأل أحد من أين جئت أو إلى أين ذاهب، هي مدينة تاريخية قد يكون عمرها الآن أكثر من اربعمئة سنة كان لها سور عظيم وباب نسيه الناس بعد أن دمرته القوى الغازية من ايطاليين إلى انجليز إلى عثمانيين إلى فونج إلى والى، فهي كالمدن العتيقة والهامة التي كانت تسور لأسباب عديدة وتشيد لها الأبواب كمدينة القاهرة القديمة وصنعاء القديمة ومدينة زبيد باليمن، كسلا عرفت العولمة قبل أن يعرفها شمال الكرة الأرضية، عاشت فيها اجناس كثيرة وانصهرت بلغاتها ولهجاتها ودمائها الاسيوية والافريقية والاوربية بثقافات المتعددة، هي في نفس الوقت قرية رغم مساحتها الواسعة فسكانها يعرفون بعضهم جيدا ويؤازرون بعضهم البعض، بلد ما أن تشرب من توتيله (نبع ماء في منطقة الختمية) إلا وتعود اليها باحثا عنها، ساحرة فيها روح فياضة بالحنان والحب وهي جميلة وكأنها موكلة بالجمال كما قال الشاعر عمر بن أبي ربيعة، حتى أن اناثها من كل نوع جميلات وفاتنات. يا لروعتها عندما تتأملها بعين المحب أو العاشق ذلك احساس غريب!

نهارات ما قاومت جمالها، فقط ترخي بأهدابها إذا ما ذكرت بفتنة الجمال وما قد يحدث إذا ما طغى جمال الأنثى على المكان

والزمان.. أعتى الرجال يبدو طفلا وقد ينهار وأقواهم ينتحر على بوابة الفتنة ويسمى شهيدا، وهو صريع الجمال، معاركه لا يدري بها أحد الا هو، (الحب عذاب في كسلا) هكذا يكتب في زجاج السيارات و(العذاب في الهوى مستطاب) كما قال الفنان السوداني المعروف عبدالعزيز محمد داؤود.

النهارات لم تمنع زوايا الذكر من أن تقيم لياليتها المباركة وتمسح بعض السكينة على وجه المدينة المؤمنة.. كيف تؤمن المدن؟ لا أدري... وإن كانت كسلا تؤمن أيضا بصناعة المزاج البلدي (العرقى) وكثير من العاقلين يغيبون عن الوعي بعد المغرب لكل اسبابه ودوافعه التي يتفهمها الآخرون لذلك لا يتعرض السكارى هنا للإيذاء أو الاساءة أبدا ما لم يعتدوا على غيرهم أو يصدر منهم ما يغضب أو يؤذي، إلى جانب بيوت (العرقى) وبمسافة قصيرة هناك المسجد، آخرون يصلون كل الصلوات في المسجد ولا يدعون لهؤلاء بالهداية على اعتبار أن من يهتدى فلنفسه.

النهارات ترقب زير الماء وهو يساقط الماء في تئنة ورتابة بالغة والدجاجات افترشن حول وعاء الماء بحثا عن مكان بارد يخفف حر أجسادهن النحيفة، والقطة الصغيرة صاحبت الدجاجات وتكومت بجوارهن، فهذا أنسب مكان في مثل هذه النهارات التي لا تدع مجالا للشجار أو الاختلاف، أما الكلاب فأشجار الشوارع تأويها ولا وقت للنباح فكل الوجوه معروفة والاغنام الهزيلة تتجنب هذه الكلاب الوقحة.

الرجال ينامون كثيرا ويتحدثون كثيرا ولا أعمال إلا لمن أراد.. وغالبا ما تثرثر النساء ويفصحن عن ضيقهن من الأزواج الذين

يقضون كل الساعات داخل البيت، أمر مزعج لكل النساء، وللحب مذاق آخر في زمن كهذا وفي فصل الصيف بالذات هكذا يقول الشباب الذين يذهبون عصرا مع حبيباتهم بعيدا إلى جبل توتيل أو إلى الحديقة أو أي مكان آخر بعيدا عن أعين الناس ما عدا السينما لا يذهب اليها العشاق فكل شباب الحارات العاطلين والبلاطجة هناك وبعضهم يدخل الفلم مرتين من فرط الاعجاب بالسينما الهندية ورومانسيتها.

- في احدى هذه النهارات لبست (مكية) ثوبها السوداني (الرهيف) المصنوع من القطن المزركش بالألوان، صار خفيفا من قدمه وطول استخدامه.. همت بالخروج، امسكت بتلابيب ثوبها ورفعتها قليلا، لم تلتفت إلى الوراء، واصلت خطواتها إلى الأمام، جرت وراءها ابنتها وامسكت بطرف الثوب في حنية لا تخلو من الحرص، ادارت وجهها ليتقابلا، مسافة تشعلها مشاعر الحب والود المتبادل بين البنت وأمها، اللاتي يتقاربن كثيرا في السن، وبصوت خافت تقول لها: أمي أين أنت ذاهبة؟ انها ساعة الظهيرة والشمس كما ترين اليوم حارقة الشمس على غير العادة.. أين أنت ذاهبة.. اجلسي.. لا تخرجي...

- تتقدم خطوات أخرى نحو الباب: لا.. يا بنتي انه وقته.. لقد عاد من العمل ومن العيب إلا يجديني في البيت في مثل هذا الوقت.. دعيني.. - تحاول إبعادها عن طريقها -.

- البنت وهي تحول بينها وبين الباب وتبتسم: من هو يا أمي هذا الذي تتحدثين عنه، والدي الله يرحمه توفي منذ عشرين سنة أو أكثر..

- تسحب طرف ثوبها نحو جبهتها لتغطي شعرها الابيض في حياء قائلة: لأ... ليس والدك.. (إنه سيد الرجال الذي لا يشق له غبار - شيال الثقيلة مقنع الكاشفات، فارس الحوبة -) أبوبكر إلا تعرفينه؟

- تواصل الوصف، وقد انفرجت اساريها: الرجل المربع الانيق، الذواق الذي زان الأدب والأخلاق.. تقولين والدك؟ والدك الذي ما عرف الذوق يوما ولم أعش معه يوما جميلا... دعيني.. دعيني - تبتعد قليلا - أنت لا تفهمي كوالدك.. قالت والدي قال... - ضاحكة بصوت عال - نعم أنا كوالدي.. يا ست النسوان، حتى شكلي مثل والدي، وسعيدة أني اذكرك كل يوم بوالدي مهما حاولت نسيانه، لكن أبوبكر هذا لم يتزوجك بل هرب وتزوج بأخرى وتركك، لولا والدي لما تزوجت حتى اللحظة...

- بلامح جادة وقد عادت لتجلس على سريها الخشبي المنسوج من الحبال (العنقريب)، وفوقه فرش قطني ووسادة صغيرة، قابع السرير في احدى زوايا الحوش المحاط بأشجار الحنة التي زرعتهما مكية في سنوات ماضية.. ترد قائلة على ابنتها التي استفزتها بقوة: أبوبكر هو الرجل الوحيد الذي تحدى وجاء ليخطبني، عندما كان الناس يهابون والدي وجبروته، تقدم للزواج مني وقال لوالدي اريد الزواج من ابنتك (مكية) بكل شجاعة وكان صادقا - تنفرد ملامحها قليلا - كان الوحيد الذي يمتلك حصانا في المنطقة كل الشباب يحسدونه ويغارون منه، كانت الفتيات يتمنينه ويتغنين بوسامته وشهامته، لكنه لم يكن يعرهن اهتماما.. فقط أنا التي اختارها قلبه وقرر الزواج منها، وعندما رفض والدي ترك غرب القاش بل ترك مدينة كسلا ولم يعد اليها.. مازلت اذكر

يوم فراقه، بكى وانتحب واخفى وجهه مني.. لم أكن اعتقد انه سيسافر بعيدا إلى الخرطوم، مرضت بعده وكرهت الحياة وتمنيت الموت - تعود لملامحها الحزينة -...

- مقاطعة حتى تنسى والدتها فكرة الخروج وقت الظهيرة وتشغلها قليلا حتى يعود بقية أفراد العائلة من أعمالهم ومدارسهم: يا أمي أبوبكر هذا الوسيم كان المفروض يحارب ويناضل من أجل حبكما إلى أن تتزوجا لكنه ترك كل شيء وسافر.. لم يكن شجاعا كما تقولين؟

- تشير بسبابتها في وجه ابنتها - استحي يا قليلة الادب.. هل هذا كلام تقولينه عن عمك أبوبكر... صحيح مثل والدك غيورة وحسودة وما منك خير.

- تدير وجهها كأنها تنهي الكلام: أبوبكر مات يا أمي.. ووالدي مات أيضا...

- ترمي بدمعات حارات توازي حجم الحزن داخل امرأة في العقد السابع من عمرها منذ عامين انتكست ذاكرتها ولم يبق فيها ملفا مفتوحا على مصراعيه كما هو ملف زواجها من أبوبكر الذي أفشله والدها الفظ غليظ القلب بعد أن عرف بقصة حبها لأبوبكر في زمن يعاب فيه حب المرأة للرجل فالمقبول أنها تحب ولكن لا تحب - عند معظم الأسر المحافظة -.. وعنادا في (مكية وأبوبكر) وحتى لا يقال أن ابنته تزوجت عن قصة حب وهو ما كان يعيب البنت وأهلها معا، وربما يقال إنها قليلة أدب وأهلها لم يحسنوا تربيته وربما تكون قد اقترفت ذنبا هي والشاب لذلك اضطرا أهلها لتزويجها منه.. قصد والدها تزويجها برجل آخر لتأكيد أن ابنتهم تربت جيدا وانها مثل تفاحة نضرة لم يمسه انس ولا جان، فكان

محمد الفوراوي هو العريس الذي لم يرق لعروسته لا شكلا ولا جوهرًا، رفضته بل رفضت معاشرته كزوج وتذكر أنه عندما حاول الاقتراب منها في الليلة الأولى من الزواج، دفعته بعيدا وصرخت، مما جعله يمسك بثيابها ويمزقها بغضب، حتى بدت أمامه عارية تماما لأول مرة، سدد لها لكمة قوية أفقدتها توازنها وشعرت بدوار، رمى بها فوق السرير وقال لها كلاما جارحا مذكرا إياها بعلاقتها بأبوبكر، مؤكدا لها أنه تزوجها نكاحا في أبوبكر وليس حبا فيها، ولولا احترامه لوالدها لفعل بها ما لا تعرف ولا تتوقع، ولن يسمح لأبوبكر أن يتزوجها مادام حيا.. حاولت الفكك لكنه افترسها ضربا ولطما إلى أن اغمى عليها، بعدها لم تدر ما حدث لها وكانت تلك هي تفاصيل الليلة الأولى التي تذكرها.

- أصر والدها إلا تعود إلى البيت بل تعيش مع محمد الذي تعهد أن يتعامل معها برفق حتى تحبه وترضى عنه.. أعيدت مرارا لبيت زوجها ودموعها على خديها وآثار.

- كان يغلق باب البيت جيدا خوفا من أن تخرج أو يزورها حبيبها يوما ما خلصة، في حين كانت البيوت في غرب القاش لا تغلق بل تظل مفتوحة ليل نهار فالأمن والطمأنينة يسكنان في قرارة النفوس، والأهالي يشعرون أنهم أسرة واحدة لا أحد يخون الآخر أو يعتدى على ممتلكاته، حتى السكارى كانوا يراعون قيم المكان.

مكية لم تعدم الحيلة في التواصل مع خديجة ففتحن فتحة بينهما في الجدار الطيني الذي يفصل البيتين بحيث لا ترى فالبيوت المشيدة باللبن والطين مترابطة كقدر متلاحق.. بيوت يبننها الناس في مدة قصيرة وبإمكانات متوفرة وغير مكلفة، وبعض

آخر يشيد بيته من القش والقصب، مما يعرض كثير من الاحياء إلى الحرائق المستمرة والدمار بسبب الفيضانات والسيول.. كانت مكية وصديقتها خديجة يقضين الوقت معا في مناقشة مشاكلهن وهمومهن، كانت تخفف عنها خديجة وتخدمها كثيرا في شراء وتوفير ما تريده من السوق القريب، تبصرها ببعض الامور الزوجية، تساعد في تربية الأطفال الذين ولدوا تابع متلاحقين بعضهم بصحة غير جيدة تماما.

والدتها سيدة طيبة، أرهقها الزمن ورسم ملامحه على وجهها الوضاء، هي نسخة أخرى من كثير من نساء تلك المنطقة اللاتي يخضعن للواقع وسلطة الاب وبقية رجال الاسرة، ربة بيت لا حول لها ولا قوة.. حياة يتسيدها الرجل وحده.. رجل قاس تربى على أن الرجولة هي أن تخضع كل من حولك لسلطتك وتسلب حرياتهم وتدعي حمايتهم.. الرجولة في بعض وجوها تعني أن تكون قوى البنية مفتول العضلات، ضخمة الصوت، تقهر غيرك وتضرب في ساحات الغناء عند الاعراس بسوط (العنج) تحت تأثير غناء حماسي يلهب مشاعر الذكور دون أن يبدو عليك أي ألم أو حركة تنم عن خوف، ويصفهم الغناء بالرجولة والكرم والشجاعة فالرجل الشجاع لا شك سيكون كريما لأن الكرم تتبعه الشجاعة أو هما متلازمان.

- تزوجت أم مكية دون رضاها وزفت لرجل ما عرفته إلا عند عقد قرانهما، يوم وزع التمر الجاف والحلوى على الصغار والكبار وأوتى بكراتين الشعيرية لطعام الفطور صبيحة العقد أو صبيحة العرس..

هو صديق لوالدها، كانت في السابعة عشرة من عمرها، لم يستخدم العنف معها، لكنه لم يكن مرنا أو رحيما.. تخافه وتكرهه في نفس الوقت، لقد أصبح زوجها وينبغي أن تطيعه وأن تطيع فيه والديها، فوصية والدتها أن (طيعي زوجك حتى يغفر الله لنا) وها هي ابنتها مكية تعيش نفس القصة المؤلمة، مأساة تتكرر، زواج بالإكراه وحرمان من حبيب راغب فيها وهي راغبة فيه، مستعد للارتباط بها، جهز نفسه لتحمل المسؤولية والزواج بها وأسر لأمه برغبته في الزواج من مكية وباركت الأم بل من فرحتها بك، فهو ابنها الوحيد الذي كانت تحلم برؤيته عريسا يزف فوق حصانه والنساء والرجال حوله يساق الى النهر بغناء خاص رغبة في التبرك بماء النهر الذي يزيل كل العوارض منه، كما كان يحدث في غرب القاش، حلمت كثيرا بيوم حنته وتغنت كثيرا بأغاني السيرة و(التمتم) وهي تؤدي عملها اليومي لذلك عندما أفصح عن رغبته في الزواج ارتسمت الصورة الحلوة أمامها وعمها تيار من الفرح فبكت وحضنته قائلة: (والله لأعمل لك أحلى عرس في غرب القاش يتكلموا عليه للحول، اسيرك للبحر وازفك بجريد النخل واسوى العديل الزين ويرقصن خالاتك ويزغردن بنوت الهي ويفرح أهل أمك وأبوك).. ظل هذا الملف مفتوحا في ذاكرة مكية كجرح نازف غائر، رغم مرور خمس عقود.. إنه الحب المؤؤد، لسعة الذكريات المرة عندما تسيطر على الانسان تمنع كل الفرح من أن يمر أو يعبر..

عرف قاس ليس لدى جميع الأسر بل هناك اسر تعيش الحياة كما ينبغي أن تعاش الحياة، نساء قويات يعرفن قدرهن واخريات يضرين بالأعراف عرض الحائط وما خوف الرجال وغلظتهن أحيانا

إلا خوفا على الشرف وسمعة الأسرة خاصة وان الاشاعات تولد نفسها وتتعلمق بسرعة.. كلام الناس عندما لا يكون هناك كلام أصلا، عندما يضع شرف الأسرة بين فخذي امرأة يكون ذلك بلا معنى..

غابت ذاكرة مكية إلا من أحداث جسام بالنسبة لها ففيضان النهر لم يغب عن ذاكرتها أبدا.. يوم جاء نهر القاش من مرتفعات الحبشة ليلا كلص جبار يدخل باحترافية عالية، فكما سمعت اصواتا عالية ظنت أن (نهر القاش) امتلاء وفاض وعليها أن تهرب بعيدا حتى لا تغرق في مياه النهر، فالنهر غذار كبعض الرجال.

في ذاكرتها مشهد لم تمحه السنوات بحلوها ومرها ابدا.. الأيدي على القلوب والنظرات الخائفة والمتوجسة في انتظار ما قد يحل، عدم الطمأنينة للسماء التي بدت صافية كما لو انها في حالة تصالح مع نفسها، لكن هبات النسيم القادمة من بعيد تشير إلى أن النهر قادم وانه لن يتأخر كثيرا وان هناك امطارا قد هطلت في مرتفعات الحبشة، اضافت إلى رصيده الممتلئ خطورة اخرى، صعب توقعها، مازالت النسوة تتجمع من بيت إلى آخر يتحدثن عن النهر الموسمي الذي اعتاد أن يزورهم بتحدٍ.

الأطفال يلعبون في الساحات الرملية ويتقافزون فرحة بالحالة الاستثنائية التي يعيشها الحي والمنطقة كلها والحمامات تتطاير في انسجام لتكسي سماوات المدينة بالبهاء والحرية، أشجار المانجو تتمايل وتساقط اوراقها وبعض الزهرات الصغيرة، رائحة الريحان تطمس رائحة الحرائق التي تشعل في اكوام القمامة يوميا بالمساء كنوع من التخلص من مخلفات البيوت تقليد قديم لا يمت إلى صحة البيئة بصلة.. اما الرجال فقد أثر بعضهم الذهاب بعد صلاة

الفجر لمعرفة ما إذا كان النهر قادما أم لا؟ وما مستواه، انهم هناك بسياراتهم وبجمالهم والخيول كل ذلك حتى يستعدون لخصمهم العنيد.. إنه نهر من خوف وفيه البشرى كما يقول كبار السن الذين يعرفونه منذ عقود، الجد عباس قال معلقا: (نهر القاش كبر كما يكبر البشر بدأ صغيرا كمجرى ثم بدأ يتوسع قليلا قليلا إلى أن أصبح بحجمه الحالي شقيقي يوسف سُمي بالقاش لأنه ولد يوم فوجئ الناس بنهر القاش وقد اتسع بشكل غير عادي أي أن مجراه توسع وماؤه كثر، كان قديما لا يخرج عن مجراه أبدا إلا كل عشر أو عشرين سنة وبعد أمطار غزيرة، اما الان فانه يتحدى المدينة واهلها كالفتوة ويقسم إلا يسلم على كل بيت...).

- عندما فاض النهر مكية وبحكم انها البنت الكبرى لوالديها رأت كيف أن والدها بساعديه المفتولتين حمل الابناء الذكور على كتفيه وخاض بهما الماء الذي غطى وسطه وهو رجل طويل عريض، حملهما لإنقاذهما فيما طلب منها أي مكية وهي في الخامسة عشرة أن تحمل شقيقتها ابنة الثامنة وأمها تقوم بحمل ابنة السادسة، لم يكن بمقدورها أن تفعل، لكنها حاولت خوفا من والدها وطمعا في رضاه، إلا انهما سقطا وسط ماء النهر العكر بلون الطين، حاولن أن ينهضن فيسقطن من حركة المياه الجارفة تكررت المحاولات والصغيرات يصرخن: أنقذونا.. أنقذونا.. لولا تدخل بعض الرجال الذين هرعوا لماتت الأم وبناتها فيما تجاوز الأب بأبنائه المكان ووصل الى مكان آمن غير آبه ببنياته، كان ذلك مؤلما لمكية.. لقد تركهما ومضى، ماذا يعنى الرجل بالنسبة لمكية؟ الأب في ذهنيتهما من هو وكيف كانت تريده أن يكون؟ حتما الاب ليس من يجلب الاكل والشرب، ليس من يأمر وينهي ويقرر مصائر

الناس الذين يتبعونه في كل الاحوال، ليس من يشعر الاخرين بضعفهم وبحاجتهم الدائمة له، ليس من يعتبر المرأة وعاء للحمل والولادة والمتعة.. وان البنات لابد من تزويجهن مبكرا ليستمتع رجل آخر بطراوة أجسادهن كما استمتع هو من قبل وحتى لا يفكرن في المعصية.. الشيطان جالس على مقربة واحدة من كل النساء..! شريط قاتم في الذاكرة يوجع رأسها ويؤلمها كلما رأت نهرا أو رجلا يشبه والدها أو ذكر اسم والدها فهي تضحك بألم وتعلق مرارا: (هو ربنا لما يناديننا يوم القيامة بأسماء امهاتنا لحكمة يعرفها هو ولان الالباء في الدنيا فقط.. لكن الأمهات أكثر أمانة وحباً لأبنائهم وصادقين مع أنفسهم ومع الله).

- الملف الثاني الذي ظل مفتوحا كأبواب البيوت الكريمة التي يتغنى بها الناس هو ملف أبوبكر وضياح حلمها الجميل بيد والدها الذي حرّمها من حبيبها وربط حياتها مع رجل لا تحبه ولم تكن تتمنى أن يكون زوجها ابداً، كعادته يجني عليها وينأى كأنه لم يفعل شيئاً، كأنه لم يؤلمها ولم يقتلها ذات يوم.

* * *

- تعاود البنت لتشاغل والدتها مكية بالقول: الحمد لله يا أمي لقد توفي والدي وتوفي أبوبكر كلهم ماتوا..
- في ألم: والدك لم يتوف بعد..! مازال يعكر صفو الحياة، مازال قادر على قتل كل شيء جميل في هذه الدنيا.. لا يموت كما يموت الناس بل يحيا بالطريقة التي لا يحيا بها أحد..

- مازحة: الآن لو عاد الزمن للوراء ممن ستتزوجين يا أحلى
مكية في غرب القاش؟

- تعود الابتسامة لوجهها الذي خططته التجاعيد لكنه
مازال يحمل لمعة خاصة: تعرفي انني فكرت في لحظة جنون أن
احرق والدك محمد وكان يراودني هذا الشعور دائماً، كراهية إلى حد
الرغبة في فناء الآخر والتخلص منه مع أنني لست شريرة، قلبي كبير
يتسع لكل الناس إلا والدك ضاقت به شراييني وضاقت به نفسي،
لكن كنت أتراجع واخاف الله ليس خوفاً من أحد بل من الله
وحده، كيف أقابله وأنا قاتلة؟ صعب الا تجد ما تقوله لأرحم
الراحمين كمبرر للمعصية والذنب الكبير - تصمت برهة ثم تواصل:
أود أن أرى ربي وأنا نقية، مظلومة وليست ظالمة الظلم ظلمات
وحتي ينصفني الله فهو عادل، لم يخلق الحب عبثاً بل لنحب
بعضنا ونحسن إلى الحب ولأنفسنا.. تعرفي أن موت والدك ما كان
يكلفني سوى قارورة جاز وكبريت اشعلها في (القطية) المصنوعة
من القش والخشب التي كان يمتلكها قبل ما تجري الفلوس بين
يديه ويبنى هذا البيت ويزداد افتراء..

- هذا كلام خطير يا أمي.. من أجل الحب أو من أجل ماذا؟
- وهي تعتدل في جلستها وتفتح عينيها الغائرتين وترمي
بصندلها بعيداً عن قدميها وتقول: لم نكن نسميه هكذا (حب) بل
من قلة أدبكن...

- تواصل: كنا نسميه (الريد) وليس الحب.. لأن والدك كان
يعلم أن أبوبكر يريدني ويرغب في الزواج مني ومستعد لكل شيء..
هم أولاد حثة واحدة كل يعرف الآخر والخبر كان ينتشر بسرعة،
ومع ذلك والدك لم يحترم رغبة صاحبه الأصغر منه بل أصر على

الزواج مني والمصيبة أنه كان خاطبا لسعدية جارتنا، تركها وجاء ليتزوجني مرضت سعدية لكنها تزوجت من أول طارقٍ طرق بابها.. هو يعرف أنني لا أريده ولا أطيق رؤيته عندما كان يمر من أمام بيتنا، ألا يستحق القتل والموت؟ تبلع ريقها وتضيف: يا بنتي المشاعر دي مش بيد الانسان واللي يقتل مشاعر الناس أو يؤذي المتحابين ربنا يدخله جهنم..

- البنت تحاول نبش ما بداخل والدتها: اذن كان والدي يحبك.. اقصد يريدك..

- ترمي بنظرها بعيدا صوب شجرتي (النيم) التي تجاوز طولهما المتر الواحد وقد أوفرتا واخضرتا - قائلة: يا بنتي هناك قلوب لم تخلق للريد بل وجدت كمكائن تعمل كأى مكينة صناعية، الوجوه تحمل مكنونات القلوب وانا خبرة في رسائل القلوب.. متى ما رأيت شخصا ناشف المقل عيونه زى عدسات جفت من سنين ما فيها حياة، كان ذلك دليل قساوة قلب، ومتى ما كان دفئه مفقودا كان قلبه سقيما، الريد لا يعرفه كل الناس والمحبة قسمة ونصيب من الله ولا تذبل مع السنين.. والقلوب العامة بالحب تعرف من العيون.

- يا أمي انسي أبوبكر وصلي على النبي وانس والدي ووالدك وتعالى نشرب قهوة كسلاوية قبل الغداء مع شوية بخور عدني..

- تقف فجأة ويعلو صوتها وقد قفز إلى ذاكرتها شريط فيضان النهر - لأ... لأ... اسمعي الناس يصيحون اصوات نساء وأطفال، نهر القاش خرج عن مجراه، كسر الضفاف، خرج للحواري كعادته.. تعالي نهرب بعيدا عن هنا قولي لأخواتي هيا لا أحد ينقذنا لنهرب، ايقظيهم من النوم لنهرب بعيدا، ليس لنا من

أحد إلا الله.. لن أحمل أحدا.. لن أحمل أحدا هذه المرة حتى لا
نموت جميعا.. هيا.. هيا - يعلو صوتها - لا نموت....
الموت....الموت...الموت

* * *

- نهر القاش هو النهر الوحيد في العالم الذي لا يعرف الحب
ولا المعروف، يحبه أهالي المنطقة بجنون وفي نفس الوقت
يخافونه حتى الموت، والمدينة حينما فسحت له بالمرور من
وسطها كانت تحلم بالرخاء وبالرفاهية كبقية المدن الرائعة. انها
نفس العلاقة بين مكية ووالدها الصارم القاش الذي تخافه وتحبه،
خليط من مشاعر لا تهدأ ولا تعرف الوسطية والاعتدال، هو لا
يحب أحدا سوى نفسه.

- نهر القاش عندما يقرر زيارة المدينة والعبور بوسطها
ليقسمها شرقا وغربا يقرر ذلك فجاءة دون مقدمات، فقط إذا
هطلت الأمطار في مرتفعات الحبشة يتوقع الأهالي أن يأتي النهر
وبقوة... وهنا يودعون الطمأنينة والهدوء ويودعون شياهم
الغالية والعزيزة عليهم.

- عندما يريد تقبيل المدينة يفعل ذلك بعنف كقبلات العشاق
المحرومين.. يخلف وراءه جثثا وجرحى، ركما وطينا، أشلاء، هلعا
وخوفا، حزنا، هما وغما.. عندما يتأخر عن مواعده تراهم
يفتقدونه، يشتاقون اليه، يتساءلون: ترى لماذا تأخر نهر القاش
عن المجيء؟ ما الذي جرى، إنه مواعده، في العام الفائت مثل هذه
الايام كان هديره يزلزل البلد.. كنا نوقد من خيريه، من الأعشاب

والأعواد والأخشاب التي كان يحملها لنا لكن في العراء.. ترى لماذا تأخر..؟

- آخر وقد ارتسمت ملامح التساؤل عليه: العام الأول حمل الينا أسماكاً غريبة.. ملونة وعريضة بألوان مختلفة لا ندري لها أصلاً.. اصطدناها من (القيف) فرحين بها. شويناها واكلناها انها لذيذة جداً.. خيرات القاش كثيرة.. تصور أن نفوس الناس تطيب ووجوههم تنفرد وأجسادهم الجافة خاصة أقدامهم المكشرة من العناء والعمل طوال السنة تنفرد عندما يأتي القاش لأنه يروي الأرض جيداً وتكتسب نداوة وخضرة وبالتالي النفوس، يربت على الأرض والأجسام ترطب.. يا سلام أين هو حبيب كسلاً؟

- ثالث - وهو غاضب من الكلام العاطفي: تشناقون للقاش وهو يدمر كل ما حولكم، يحول المدينة إلى خراب وأنتم تشناقون لسماكيات يأتي بها، يعلم الله من أين.. قد تكون سمكات ميتات من أيام الملك (منليك) وجدها في مجراه فأتى بهن اليكم ولأنكم لا تعرفون السمك ولا انواعه، تشكرونه يا لكم من مساكين.. أردف في نبرة أعلى - لماذا تشناقون اليه.. ولماذا هذا النهر بالذات لا يحول مجراه إلى منطقة ابعد عن المدينة خاصة وانه موسمي أي أن هناك وقتاً لتحويل المجرى وتوجيهه على نحو آخر.. هو عدو العمران..

- يرد عليه آخر: إذا كان يكسر ويدمر فهذا شأن السلطة والأهالي لماذا لا يقيمون المتاريس العالية والقوية التي تمنع خروج النهر عن مجراه وهذا أسهل من تغيير مجراه..؟ أنهار كثيرة أعظم منه لها متارس قوية وعالية وشواطئ جميلة إلا هذا النهر، الحكومة فشلت في تطويعه، دليل فشلنا وتكاسلنا.

- تعليق خافت: يا ولدي كلامك صح الإشكالية إشكالية تخطيط وعمل من بدري لكن كسلا من غير نهر القاش لا تعني شيئا، هو جزء منها وربنا أعطى هذه المدينة النهر كهبة منه وليجمل به المدينة ويمنحها جو لطيف، ومن خلال هذا النهر تتميز وبه تعرف والسريا ولادي عند الله..

- تتمم أحدهم بيأس من الافكار التي طرحت - السر عند الله.. السر عند الله... كل مشاكلنا نرمي بها إلى الله ولا نعمل شيئا، لماذا خلقنا الله؟ لنفكر، لنعمل مش كله على الله..! ما الفائدة إذا لم نفكر في حل المشاكل التي تحيط بنا وتعيق حياتنا مع ضرورة التوكل على الله.. نحاول إلا يتكرر ما حدث وننقذ الناس من الفيضانات ونعمل حسابنا لكل عام وللأعوام القادمة.

- نهر القاش يتخلل رسائل المغترين إلى ذويهم، اذ يسألون عليه كبقية الأهل في رسائلهم المكتوبة على الورق وفي رسائلهم بالهاتفون ومع المسافرين.. الخ.. ترى هل جاء القاش.. لماذا تأخر عن مواعده؟ هل سقطت أمطار تعجل وصوله من هضاب الحبشة؟ هل تتنسمون رائحته؟ اذن استعدوا لخريف من نوع خاص.. له رائحة خاصة تسبق وصوله، هذا النهر الخالد، موسمي في جريانه واتيانه، لكنه شرس يجتاح المدينة كل عام بقوة وعنف، رغم المتاريس التقليدية ودعوات الاهالي في صلواتهم خاصة في فصل الخريف حيث الأمطار تهطل بكثرة وأبواب السماء مفتوحة والدعاء مستجاب، ينحسر بعد ستة أشهر أو يزيد ثم يتركهم ستة أشهر أخرى يرممون ما دمره ويبكون على موتاهم ويحزنون على أشياءهم الثمينة، وما أن ينسون بعض آلامهم وأحزانهم إلا ويأتي ثانية ليعيد الكرة.

- في إحدى المرات تداعى كبار السن ورجال الصوفية للصلاة والتوسل إلى الله بأن يخفف الله عن البلدة المطر والسيل القادم، فزادهم الله مطرا أكثر، أيقن الناس أن الله يريد أن يطهرهم بهذا الماء وما بكاء السماء إلا لحكمة يعلم بها الله، استبشروا وصبروا على اساس أن المطر والغيث أفضل من الجذب والجفاف، وبعض قليل اعتقد أن عقابا من الله حل بهم ربما لأن النفوس لم تعد كما كانت، فقدت نقائها وطيبتها، كيف لا وقد بدأ الناس يحملون ما يشترتون من أكل، خضروات وفاكهة في اكياس بلاستيكية سوداء فقد رموا بزناويل السعف (القفة) التي تصنع من سعف النخيل السامق في الدروب والبيوت.. لا يخفي جار عن جاره شيئا، هذا تفسير (حجة التومة) التي اضافت لأسباب العقاب سببا آخر بقولها: منذ أن بدأ بعض ناس غرب القاش يغلقون أبوابهم في وجه بعض حتى أنك تحتاج إلى طرق الباب مرارا حتى يفتح لك الباب الذي ما كان يغلق حتى بالليل، هذه التحولات هي التي باعدت بين الناس مما لا يُرضي الله (يوم قفلوا ابوابهم غضب الله علينا وين يروح العاطش، والجوعان وين يلعب الاطفال؟ والغريب لو جاء كان زمان يدخل أي بيت ويضيفوه لما يتعرف على اهله وناسه لكن الان يقيف في الشارع لما ينفتح ليهو باب...)

- (أم حقين) - وهي الأكبر سنا في المنطقة فإنها تعزو العقاب الرباني للحفلات التي لا تهدأ حتى الفجر وكذا للسكر و(المريسة) التي تباع عيني عينك وكأنها عصير أو علاج..

- نفيسة أم سمير لديها تفسير آخر لا يخلو من طرافة، فهي تربط ما بين تناقص مرتادي المساجد وبين غضب الله وتضيف حادثة زواج بنت علي طاهر برجل آخر قبل اكمال العدة..!

وتضيف مؤكدة: كيف..؟ ربنا قال من يتعدى حدود الله يعاقبه وهي ما انتظرت تكمل العدة وتزوجت لأن الرجل شبعان وخايفين يطير عليهم، كسروا كلام الله وزوجوها قبل ما تكمل العدة غضب من الله يا ناس كسلا... وكم يا ناس يتعدوا حدود الله هذه الايام لا خوفا ولا حياء..

- كلها تفسيرات بسيطة بساطة حياتهم التي لا تحتمل التعقيد تصب في إطار تأنيب الذات وجلدها لعل ذلك يخفف ما هم فيه من خوف وهلع من الآتي، ولعل الله يستجيب..

* * *

- اجتياحات نهر القاش لمدينة كسلا وضواحيها تمثل تاريخا لأهل المدينة اذ لا تنسى ابدا.. فكبار السن يؤرخون بتلك السنة التي اجتاحت فيها المدينة والى اين وصل هذا المتمرّد كأن يقال: (محمد ابن فلان اتولد بعد الفيضان الأخير بثلاثة أشهر، ونفيسة تزوجت قبل الفيضان الكبير بأسبوع، وعبد الجليل طلق زوجته في نفس السنة التي فاض فيها نهر القاش ووصل حي العرب أو حي الختمية واشترت فيها الأرض الزراعية، وهكذا الجميع يعرف متى كان ذلك).

إن قساوة هذا النهر لا تخفى على أحد فهو يمتد على مساحة طويلة وعريضة.. يلطم الجبال العاتية بقوة، يتحداها كمجنون ينال من اللاشيء كي يستنفذ قوة كامنة ومجنونة يحملها من مسافات بعيدة، هو نهر شاب رغم سنوات عمره الطويلة التي لا يعرفها أحد.. نعم لا أحد يعرف متى ولد، ككثير من الأشياء التي

تولد في هذا المكان بلا ميعاد، هو يدري أن جبال التاكا جبال صلبة ترتفع في الافق شاهقة ومع ذلك يحاول ثم يحاول وعندما تنهار قواه يعود إلى مجراه منهكا كرجل عجوز فقد عصاه وأنهكت أعصابه ولا ينسى في معاركه هذه اقتلاعه لأشجار الموالح والنخيل، يسوق كل ما يجده أمامه عتوا وتكبرا من نوع خاص وكأنه ينظف المكان..

من يعتدى على المدينة مثله؟ الغريب أنهم يتغنون بقوته وجسارته، في عطائه وكرمه. إنهم يمجّدونه كفارس، ويوصف الرجل الجسور والشجاع بالقاش، بل أحيانا يتعاملون معه كمعبود قديم، إله يعبد بصمت وقداصة جريانه كثعبان خطير هبوطا وصعودا هدوء وسرعة لذلك هو بلا لون محدد طيني غامق، صاف متعكر، والبعض يعتقد أن لا مدينة هنا في هذا المكان القصي إلا بوجود هذا النهر الذي يمنح الحياة ويتدفق عبر شرايينها.. وبعض آخر يعتقد أن الأرض هنا قد تختفي في أي لحظة لولا وجود النهر المقدس والجبال الرواسي التي تمسك بالأرض أن تميد بمن فيها، وأن من أسباب وجود الكائنات هنا هو وجود النهر والجبل - ثنائية البقاء - أرض يشوبها بعض الغموض ويحيط بها جمال خاص يُضفي على الناس روحا وملامح خاصة..

قد يكون النهر خط نفسه أولا ثم ولدت المدينة، وقد تكون المدينة ولدت ثم احتاجت إلى ماء فجاء النهر ليسقيها ويبدأ معا الحياة، لكن الجبل هو الأقدم، قد يكون الاثنان النهر والمدينة ولدا من حضن الجبل... قد يكون وقد يكون هذه الثلاثية لا حل لها (الجبل، النهر، المدينة) أيهم كان الاول في الوجود؟

إنها المدينة التي ولدت من رحم الجبل وباركها النهر ومازال يباركها كل ستة أشهر في طقوس أشبه بالخيال إذ يحطمها فتنهض ثانية، يلغي بالفيضان ملامحها فتخط المدينة وجهها كجميلة تتزين للقاء حبيبها ليلة أخرى، ترسم كسلا شوارعها، بيوتها ترسم نفسها ثانية وبتأن وصبر، سواقها وساحاتها مرة أخرى وفي ولادة اسطورية تكتحل المدينة بمرود النهر.. يموت الناس ولا يرحلون.. يفقدون ماشيتهم، ممتلكاتهم بل كل ما لديهم ومع ذلك يواصلون الحياة بنفس الطريقة.

لم تنقطع رائحة البن يوما عن كسلا منذ مئات السنين حتى في ايام الفيضانات فهو عطرها الذي ترتاح به من عنائها.. المدينة فيها من القبائل ما لا يحصى. أعراق وأجناس بعضها أصيل أي ابن المنطقة وآخر انتقل اليها بالهجرات الكثيرة والمتعددة كهجرات الهوسا، الهنود، اليمنيين، الاحباش، الاريتريين و....الخ، كل يتحدث بلغته أو بلهجته، قدر جميل وغريب ذاك النسيج الاجتماعي الفريد، منظومة من فسيفساء رائعة.. يقال إن أهل كسلا يتسمون بالجمال والوسامة.. من أين استمدوا الملامح الجميلة، من الأرض أم من النهر أم من تعايش وتزاوج الاعراق والقبائل أم من ماذا؟

ما اعرفه أن كسلا تعتبر ملتقى لقبائل أكثرها ذات أصول عربية.. السوق العام مكان لتواصل حضارات شرقية وافريقية واوربية وغيرها قدر كسلا هذا الخليط الذي يكون عراقتها وفرداتها.

* * *

- مكية الفتاة اليافعة التي حباها الله جمالا هادئا يميزها عن الأخريات، ولدت لعائلة بسيطة سكنت غرب القاش منذ بدايات القرن العشرين من أصول نيجيرية، جاء اجدادها إلى السودان وهم في طريقهم لأداء فريضة الحج، وعندما عادوا فضلوا البقاء في السودان وتحديدًا في مدينة كسلا في الجزء الغربي حيث يوجد عدد لا بأس به من الأسر النيجيرية التي استقرت في هذا الجزء من المدينة وهم من قبيلة الهوسا.. لكن مكية ولدت لأُم سودانية من قبيلة الشايقية التي جاءت من شمال السودان لتستقر في كسلا فجدة مكية لوالدتها شايقية من مريدي (سيدي الحسن) رائد الطريقة الختمية وهي إحدى الطرق الصوفية التي انتشرت في شرق السودان، لذلك انتقلوا حبا في الطريقة الختمية التي تتمركز في الشرق عند جبال التاكا.. وكثير من الشايقية اقبلوا على كسلا محبة للطريقة وفي نفس الوقت لتوفر الأعمال في المدينة البكر فبنى الشايقية وشيدوا المزارع وجنّاب المنجا والمواالح التي اشتهرت بها كسلا، كان ذلك في الاربعينيات من القرن العشرين.. مكية نيجيرية من أم شايقية تزوجت بزوجها محمد من قبيلة الفور بغرب السودان، ظل محمد أكثر انتماء لأهله الفور حتى سمي (محمد الفوراوي) لكنته تبين انه من قبيلة الفور.. لا أدري في أي تاريخ جاء الفور من دار فور إلى شرق السودان أي متى كانت رحلتهم من الغرب إلى الشرق.. لكنهم موجودون هناك ولهم حضورهم وكان لديهم حي باسمهم يسمى (حي الفور) كما كانت هناك احياء كحي الحلب، حي الصهريج، الهجانة، المرفودين وبيير الليمون وحي العرب...الخ من الاحياء التي ارتبطت بأسماء القبائل والاجناس التي سكنتها.. فغرب القاش تتحدث العربية المكسرة أو العربية

الممزوجة بلغة النيجيريين (الهوسا) مع احتفاظ السودانين بلهجتهم المعروفة. والفور كغيرهم جاؤوا بثقافتهم في الرقص والغناء واحتفظوا بها رغم تعدد الثقافات وتنوعها.

* * *

بئر الماء في وسط الحي جوار (الاسبتاليا أو الشفخانة) أي المركز الطبي الصغير الذي بني في عهد الانجليز ربما في عهد العثمانيين، أهم شيء أنه بني حتى يعطي علاج الكحة الأصفر لكل الامراض وبقدرة قادر يتعافى الناس من هذا الدواء مر المذاق.

بئر قديمة ككل الأحياء لديها آبار ولا يشكل الماء أي معضلة بل المنطقة تعاني من وفرة المياه خاصة بعد حفر آبار السواقي والجنانين.. للبئر حارس في متوسط العمر، يهوى الحارس التحدث إلى النساء ومغازلة الفتيات عندما يجد ذلك ممكنا، ينظم جلب المياه ويحرس البئر من عبث الأطفال الذين قد يرمون بما يلوث المياه.. تتجمع الفتيات حول البئر كل يحمل اناءه، يتحدثن عن فتافيت الصبايا، اسرار البنات وعن المناسبات القادمة والفائتة.. وعن شباب المنطقة، وسامتهم، مواقفهم واناقتهم و...

مكية في عمر الورد، لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها، لها قوام ممشوق كغزال بجسم ملفوف وعيون واسعة كحلأ، وقفت مع احدى صديقاتها تحدثها عن الأعمال التي ينبغي أن تقوم بها هذا اليوم حتى تتمكن من حضور العرس يوم الخميس، فلمحت شابا وسيما تعرفه، طويلا دون امتلاء يرمقها بنظرات خاصة، ارتبكت، لم يسبق أن رأت مثل تلك النظرات المعبرة والمركزة،

تلاحقها اينما يميمت، ولم تشعر بهذا الارتباك المفاجئ، سبق أن تابعتها عيون بعض الشباب ولكن لا يستمر ذلك طويلا.. فهي مجرد نظرات تحمل اعجابا سرعان ما يزول، رمت بإناء البلاستيك الذي فقد بعض لونه الاحمر، وتسمرت منجذبة لنظرات من نوع آخر، لكزتها صديقتها.. مالك.. مالك يا مكية... الواخد عقلك..

ظل هذا الشاب يراقب مكية من بعيد وهي تداوم على عملها الشاق في جلب الماء من البئر إلى البيت كل صباح، كما انه كان يعتمد المشى جيئة وذهابا بذاك الشارع الرملي الذي يقع في نهايته منزل مكية.. حالة من اللاسكون، البوح في اللاكلام.. نظرات هي التي تمشط الشارع وتخرق عيني وجسد مكية، في براءة الحب الاول وتردد المحبين وارتباكهم...

إلى أن قابلها في يوم ماطر تأخرت فيه الفتيات عن المجيء للبئر، لم تكن صدفة بل راقبها وانتظر مجيئها حتى وقف بجانبها ونظراته لم تفارق عينيها قائلا لها بحنية: هل يمكنني أن اساعدك؟ لم ينتظر ردها بل أخذ الدلو من يدها وباشر العمل برمي الدلو وهو يرميها بنظرات فيها الكثير - والحارس يرقبهما بنظرات تجسسية - ابتسامته تفضح رضاه عن العلاقة الجديدة التي ولدت عند البئر، وكم يا قصص نسجت هنا عند البئر العتيقة، بعضها توج بالزواج واخرى فشلت.. (أهو، في النهاية مشاعر جميلة لا بد أن يعيشها هؤلاء الشباب يذكروني بشبابي لما وقعت في حب أم احمد.. بالضبط هنا عند البير دى.. شفتها واشتعلت كلي وحببت البير وناس البير وكنت احرص كل صباح اجي للبير وانظم ورود الماء وعينت نفسي حارس البير عشانها - يضحك - ويواصل كأنه يعيد شريطا سينمائيا جميلا: أم احمد كانت حلوة مربربة وغمازاتها

حلوة وكلامها ودلعها... يا الله، حبوا يا شباب الحب قوة ربانية
ومشاعر حلوة تزين الدنيا الشينة دي..) - هكذا كان يقول لنفسه -
غرف ملء الدلو فامتلاً نصف الوعاء الاحمر الباهت - لم يكن
سريعا في أداء عمله الجميل - وقبل أن يرمي ثانية: اقترب منها
خطوة وتجرأ بقوله: أنت جميلة.. عينيك كالبحر.. أنت حورية..

ابتسمت وقتلها الحياء ابتعدت قليلا وارخت اهدابها..
ملأ الوعاء بالدلو الثاني وحمله اليها.. لامست يداه يديها، تعمد
إلا يبعد يده إلا بعد أن ودعها بنظرات عاشق لا يود الفراق لكنه
ضرورة قبل أن تأتي الفتيات إلى البئر خاصة وأن الشمس بدأت
ترفع رأسها من خلف جبال التاكا كأنها تتربص بالأحبة عند البئر
اسوة بالحارس المتسامح في الحب..

في يوم تالٍ قابلها وهي في طريقها لبيت الجيران فهمس بصوت
مكنها من السمع.. لم تلتقط من كلامه إلا أنه يريد الزواج منها..
ارتبكت كالعادة وفرحت فرحا شديدا.. وفجأة، خافت من بطش
والدها إذا ما عرف.. كيف تنقل خبرا كهذا لوالدتها وكيف ستنقل
والدتها الخبر لوالدها؟ يصعب عليهما إذ يعد من المستحيل لأن
والدتها تخاف منه وتخشى بطشه، وهي الأخرى ورثت الخوف
عنها.. عادت إلى البيت وهي واجفة وساهية كمن ارتكب جريمة
ما.. كيف.. لماذا؟.. ما العمل؟

اهتدت إلى نسيان الموقف وكأن شيئا لم يكن.. إلا أن دواخلها
مضطربة، صراع يتقاذفها.. شعور جميل يتخلل مساماتها،
إحساس غريب يحرضها على المضي فيه..

عندما حاول اهداءها شنطة يد صغيرة من جلد (الأصلة) رمتها وقالت له في خوف شديد وهي تضم يديها إلى صدرها: لاء.. أبي سوف يقتلني لو عرف..

لم ييأس بل أرسل لها مع شقيقته.. بدافع الخوف أجهضت كل محاولات أبو بكر المتكررة في التقرب اليها لكن صدها لم يخف ميلها واهتمامها وسهرها ليلا وهي تفكر به.. لم ييأس الشاب بعد، كان يحلم بها وهي بجواره ترتدي ثوب الحنة الأحمر يرسم جسدها الرشيق وتارة وهي لابسة الثوب الابيض وخصلات شعرها تنسدل على وجهها وسط صديقاتها ترقص معهن فرحا وتوهج، يأتي هو ويمسك بيدها الموشاة بنقش الحناء، يطوقها بذراعه يجلسا على الكوشة، يهمس لها بكلام ناعم.. تزغرد امهاتهم وتنفرد اخواته بالرقص فرحا وسعادة بزواجهما الميمون.. يحلم كل يوم ويتنوع الحلم، كله افراح وامنيات. اجتهد من أجلها كثيرا، جمع مالا من فلاحته لأرض والده وحصاده لخيراتها، فيما واصل تعليمه الديني ليلا في (خلوة الشيخ ود ابا) مع عدد من شباب المنطقة، كان يهوى ركوب الخيل فاشترى حصانا مرتفعا، ودار به في أول يوم حول بيت مكية مرارا لعلها تخرج لتراه، وهو في خيلاء يعتلي الخيل في فخر لم يسبقه إليه أحد من الشباب مما أشعل الحسد والكراهية في نفوس بعض أقرانه، بنى أبوبكر غرفة في بيت والده في حي الفور وكانت مثار حديث النساء، فقد طلاها باللون الوردي الخفيف وهو ما لا يستحب في ألوان الغرف، لكن الفكرة اعجبت كل الفتيات وحسدن مكية على زوج رومانسي وحساس كهذا، وكسى الشبابيك بالستائر الوردية.. عندما أعلن أبوبكر أنه يريد الزواج من مكية قامت قيامة الحي الشباب يحسدونه على البنت

التي اختارها وعلى التجهيزات التي قام بها فكيف سيكون زواجه يا ترى؟ والبنت مكية تحسدها الفتيات على زوج طموح، وسيم كن يحملن بمثله.. وبدأت رحلة الثروة خلف البيوت وفي المناسبات كالعادة مسلطين السنتهم على السلبيات والعيوب والاحتمالات الاسوأ..

* * *

في أحد الجمععات تفاجأت مكية وكل أفراد الأسرة بخبر عقد قرانها أي مكية من محمد الفوراوي في المسجد بعد صلاة المغرب.. أغمي على مكية بعد سماعها الخبر من هول الصدمة.. يومها كانت مكية قادمة - وهي في كامل زينتها - من حفل زواج صديققتها التي تزوجت من قريب لها جمع بينهما الحب سرا منذ سنوات.. نقلت مكية إلى المستشفى حيث اعطيت بعض العلاجات والمهدئات.. وتم عقد القران.. وحدد الزواج بعد شهر حتى يرتب الفوراوي أموره، أصيبت مكية بالهزال والمرض ومع ذلك لم يشفع لها ذلك الإعياء من الزواج بمن تكره (محمد الفوراوي) بل زفت اليه وهي نحيفة هزيلة، تبكي ليل نهار والجميع يعرف أنها تريد أبوبكر وأبوبكر يريد لها وقد جهز نفسه للزواج من مكية، كان ينوى عمل عرس يليق بمحبوبته.. ظلما مكية وأبوبكر وقتل حبهما في لحظة، لم يكن الشيطان حاضرا فهو برىء من جرائم كهذه بل الأب والزوج محمد الفوراوي هما شياطين هذا العمل، وحتى لا يقال مكية أحبت فلانا واخطأت معه أو ارتكبت إثما ومصيبة لذلك تزوجها ليستر عليها.. بل ليعلم الجميع أنها

شريفة تزوجت برجل لا تعرفه ولا تريده بل هو الذي يريد لها وميت فيها وقد عمل المستحيل من أجلها.. وبالتالي لا علاقة لها بأبو بكر، تكذيب لكل علامات الحب وانهاء لكل هالات القلب المكتوي بألم الحب ونيران العشق التي كادت تتوهج في سماوات اللقاء، وكأن الحب جريمة، والإفصاح عنه محرم، حتى أنهم لا يسمونه باسمه (الحب) ينادونه (الريد).. مع الفارق في المعنيين.. وبناء على ذلك أن كثير من السودانيين لا يقولون لمن يحبون (انا احبك).. ويستحي الرجل كثيرا عندما يقول لزوجته أمام أهله أو أهلها أنا أحبك. ارتبط الحب بشيء من الحياء والخجل.. وهو سلوك أكثر مما هو كلام أي الحب..

هاجر أبوبكر إلى الخرطوم مرغما وغصبا عنه، إلى البندر كما يقولون، والسفر اليها يعتبر هجرة، تاركا مدينته كسلا الجميلة وحبه لحيه الاجمل غرب القاش بعد أن فقد حبيبته وخاب رجاؤه وقتل حلمه، تحداه محمد الفوراوي الذي تربطه علاقة ود قديم بوالد مكية قاصدا بذلك قهر أبوبكر الذي يغار من حضوره في المنطقة كشاب تحبه الفتيات وتحترمه النساء عموما بينما عرف عن الفوراوي أنه بخيل يحب المال حبا جما ولا يمتلك وجهة أو وسامة تجعل الجنس اللطيف يلتفت اليه..

لم يعد للمدينة طعم ولا للحي نكهة، كل البيوت والاسماء والاشياء تتشابه الى حد الملل، الليل طويل كدهر والنهارات بلا لون.. مرارة إلى حد كبير.. ظل هائما في العاصمة وحيدا لا يعرف الوجوه ولا الوجوه تعرفه غربة القاهرة، تارة يعمل ليأكل ويستأجر وتارة أخرى ينام عند أصدقاء لم يعد أبوبكر لمدينته وضاع في

زحمة العاصمة بكبرها وشوارعها الواسعة الغربية.. بحث عنه أهله كثيرا ولكن بلا جدوى.. فقد أهله بصيص الامل في العثور عليه أو عودته خاصة بعد مضي ثلاثة عقود من الزمان ووفاة والدته بمرض القلب فقلبها تألم حتى ضاقت شرايينه، لم يحتمل قلبها غياب ابنها وقلب الام عنيد لا يتصور الاشياء الجميلة بل يكيل الاحتمالات القاسية والمؤلمة في كل تأخير أو غياب، ماتت والدته وهي تنظر الى باب البيت لعله يأتي وغالبا ما تطلب من الصغار الا يغلقوا الباب لعله يأتي ليلا.. كانت تلح في السؤال عنه كلما سمعت ان فلانا عاد من الخرطوم وتطلب من أخوته البحث عنه بين فترة واخرى.. اما مكية فظلت تحمل ذكراه حتى بلغت من العمر عتيا.. ظلت تنتظر عودته كبطل أسطوري.. حقدت على والدها ايما حقد وزعلت من والدتها لأنها لم تقف موقفا جادا، لم تنتصر لها كابنة، كفتاة، كامرأة من حقها أن تحب وتتزوج من أحبت..

ظلت تعيش مع رجل لا تحبه عمر من الزمان وما أصعب العيش مع رجل لا تحبه امرأة.. لا يمكن أن تحبه مهما كان لانها اجبرت على الارتباط به، ولم تخف أنها تتخيل أبوبكر حتى في علاقتها الحميمة مع الفوراوي.. لم تنسه أبدا ولم يزل حبه يحتل قلبها، لذا ظل الفوراوي خارج قلبها العمر كله إلى أن مات، فقط أحبت هؤلاء الابناء الاربعة الذين خففوا وطأة الحزن على قلبها - ليس صحيحا أن المرأة التي تحب زوجها تحب أبناءه لكن التي تحب أبناءها تحب الحياة فقط لأنها تستحق أن تعيش من أجلهم - درست مكية أطفالها ونالوا شهادات جامعية من جامعات مرموقة.. تركت للجميع حرية الحب والزواج وكأنها تفتح للحب أفقا لا حدود له لا قيود للحب والعاطفة.. لم تعترض عندما جاء

زميل لابنتها طالبا خطبتها، رغم اعتراض اخوتها، وافقت ودافعت حتى تزوجا، ظلت تدافع عن الحب والمحبين لتنتصر لنفسها، لجرحها.. تصرخ من دواخلها: (دعوا الحب يعيش.. لا تقتلوا أرواح المحبين) لا تريد للمأساة أن تتكرر لا تريد لغيرها الم الفراق..

للحرية في نفسها مكانة خاصة، حرية الاختيار عند نفس حرمت كثيرا وظلمت أكثر، والدفاع عن القناعات، ترفض التسلط وانتهاك حرية المحبين والعاشقين.. عندما تزوج أبناؤها الأربعة وتوفي عنها زوجها القاسي بدأت تخونها الذاكرة.. تغيب تارة وتارة تعود فقط أحداث صباها هي التي تنضح، فأبوبكر وعذوبة الحب الأول.. نهر القاش ومحاويلته خطف أرواحهم في غفلة مكرة وهم صغار، وذلك المشهد المؤلم عندما فضل الأب انقاذ الذكور دون الاناث.. الأب القاسي والزوج الاكثر قساوة.. ضياع الحلم فقدان الحياة ومعناها هذه المشاهد الأشبه بفيلم رعب بالنهاية محددة سوى صرخة.. لا...لا.. التي ترددها البطلة عادة في مثل تلك المشاهد وفي تخيلات المرعبة التي لا تدع للأمان في نفسها موقع..

- مكية عندما تبكي وتسرد مأساتها يكون الأب قد حضر بجبروته في شريط ذاكرتها، مازالت تخافه وهو تحت التراب.. تبكي لوحدها أو بين ابنائها واحفادها، تتوسل: لاء..لاء.. يا أبي دعني اعيش... دعني اعيش.. قتلتني.. دعني اعيش هذه المرة فقط.. اتركني.. اتركني..

- راكمت ابنتها ذات يوم التراب في وسط الحوش لتشييد قبرا لجدها، الوالد المستبد الذي كان سبب في تعاسة مكية، أو الرجل الذي قتل كل شيء جميل في حياتها، بعد أن بنته ورفعت التراب

قالت لأطفالها: اضيفوا كمية التراب فالقبر يبدو صغيرا، ذلك الجبروت كان طويلا وعريضا، أخاف أن تشك أُمي في أنه قبره..
- (صار القبر طويلا، عريضا كما ينبغي ووضع على الرأس قطعة من البلاط كعلامة على القبر)

- خاطبت والدتها قائلة: يا أُمي تعالي.. تعالي هذا هو قبر جدي والدك تعالي لتتأكدي أنه ميت لقد انتهى.. مات منذ فترة طويلة وانت لم تنس بعد.. كيف تخافين من شخص ميت منتهي؟ تعالي - تمسك بيدها - الله يرحمه بخيره وشره.. انتهى وانتهى زمانه يلا يا أُمي..

- مكية تأتي بخطوات مترددة وتجلس على مقربة من القبر وتبكي بحرقة - تخاطبه -: لن أصدق أنك مت.. لقد متنا جميعا وأنت لم تمت.. قل لي لماذا كنت تضريني حتى تدمي جسدي؟ لماذا كنت تضرب أُمي وتهينها أمامنا..؟ لم نكن نجد من يحمينا من يديك القويتين لم نكن نجرؤ على الاستغاثة بأحد حتى عندما رميت بعروستي التي صنعتها لي أُمي قلت لي سأرمي بك مثلها، خفت واخفيت دموعي ونمت ليلتها وانا مرعوبة.. لماذا كنت تحرمنا من حقوقنا كنا نتمنى أن نلعب أنا وأخوتي، نتمنى أن نلعب في الشارع مع أقراننا لكنك لا ترضى قتلت طفولتنا بقسوتك.. لن أصدق أنك مت لقد قتلت أبوبكر وقتلتي مرارا! عذبتني حتى الموت قبل أن تقتلني، فكرت في الموت وخفت أن تحول بيني وبين موتي الذي اخترته، فكرت في الهرب، انتابني الفزع لأني قد أجدك في نهاية الطريق، فكرت في قتل الرجال جميعا، لما عرفت أنك أول من يستحق القتل، تركت الفكرة.. آه يا أُمي.. لِمَ قتلتني، إلا تعرف أُمي أحبك رغم قساوتك إلا تعرف أُمي عندما عرفت بمرضك

بكيت وتمنيت لو نصاب جميعا بالمرض ولا تصاب أنت بمكروه كنت ركيذة البيت لا أحد يفكر في الاعتداء علينا خوفا منك، لكننا نخاف منك إلى حد الفزع.. أتدري أنني كنت أظل ساهرة لا يغشى عيني النوم إلا بعد أن اسمع صوت شخيرك يخترق الهدوء ويهز البيت؟ إلا تعلم أنني كنت أجهز كلاما كثيرا أود قوله لك، لكن عندما أراك متجهما أنسى كل الكلام وأتلعثم ويلفني الخوف؟ كنت أقوم بذلك كل يوم وعلى مدى سنوات إلى أن زوجتي بمحمد، فقدت القدرة على الكلام والتفكير معا.. كنت يا أبي.. كم هي حلوة كلمة أبي.. يا أبي كنت أقوم بأعمال البيت إرضاء لك، ومع ذلك لم تكن تعرني أنا وشقيقياتي أدنى اهتمام! كان كل همك الأولاد الذكور الذين سيحملون اسمك، وكأنا سنحمل اسما آخر، فالمرأة في نظرك كما تقول وتكرر (لو بقت فاس ما بتكسر الرأس)..

- تواصل وهي تعبت بالتراب فوق قبر والدها المزعوم وابنتها بجوارها تذرف دموع مواساة وألم لما تسمع لتقول مكية سائلة والدها: أحقا مت يا أبي وإن لم تمت فذاك أحسن حتى تظل شاهدا على عذاباتي، لم أعش ككل النساء.. لم أعش شيعا روحيا ولا جسديا.. لم أضحك إلا من مأساتي وعندما قيل لي أنك مت.. حسبته نكتة سخيفة فوالدي تعود أن يقتل من حوله كيف يموت هو؟ وأزيدك خبرا آخر هو أنني لم أشعر بسعة الدنيا ورحابتها إلا عندما توفي زوجي.. جل حياتي كانت لكما (أنت ومحمد الفوراي) وعندما رحلتما كان العمر قد انتهى وكنت منهكة.. منهكة.. منهكة.. لم أعد امرأة.. صرت بقايا امرأة.. قم الآن لتراني.. أنظر إلي وعد إلى موتك الجميل، لم أعد كنساء الأرض أشتهي وأشتهى.. بقايا حطام.. بقايا امرأة محطمة - ما زالت دموعها تتقاطر وابنتها

تمسح وجهها هي الأخرى - تقول مكية مخاطبة قبر والدها: لماذا تموتون معا.. لماذا لا ألح في عينيكما ندما أو حتى عبارة تواسياني بها لأعيش بقية عمري وانا اذكرها..

- تتوقف عن البكاء وتقول: لماذا يا أبي أنا أبكي الآن هل لأنك مت؟ لا.. أنا أبكي على نفسي لأنك لم تمت من زمان لنعيش أنا وأمي وشقيقتي! قم من قبرك حتى تكمل جبروتك وقسوتك.. مازال الوقت كافيا... وتدخل في موجة بكاء هستيرية لا يوقفها توسل بناتها وأحفادها والجيران.

* * *

- بموازة ضفة النهر وفي نهاية الطريق المؤدي إلى شرق القاش لمكية صديقة أوعزت لها بزيارة مشعوذ يسكن في طرف الحي الذي اشتهر بصناعة (الحبال، السعف، الشرقانيات، السراير والكراسي الخشبية) كما اشتهر برواج أعمال الشعوذة إلى جانب زوايا الصوفية أهمها (زاوية الطريقة التيجانية)، والبيوت المعروفة التي تصنع الخمر البلدي (المريسة أو العرقي) الذي له زبائنه من الرجال والنساء، والمسيحين الاحباش الذين يعيشون أمام الزاوية ويشاركون في ليالي الذكر التي تجذب كل من يسمعها فذكر الله يشد كل قلب، الخلاوي التي يتعلم فيها الرجال، النساء والأطفال علوم الدين وحفظ القرآن وتجويده، تلك الخلاوي ومفردها خلوة تعطر السماوات بالذكر، تسمي وتصبح بتلاوة القرآن الكريم، كل ذلك في مكان واحد يتعايش كمفردات متجانسة، لا أحد يتدخل في طقوس الآخر والحياة تسري بهدوئها وصخبها كالمعتاد.. مكية

وصديقتها قررا الذهاب لشيخ موسى لعله يصنع لمكية سحرا يخلصها من زوجها محمد الفوراوي الذي لم تعد تطيقه، فبعد ثراؤه زاد غلظة وشاف نفسه عليها اكثر، اتفقتا سرا وفي المساء سيذهبن معا.. كما هو معروف فزيارة المشعوذين تتم غالبا مساء أي في سرية تامة ولا أحد يخبر الاخر انه ذاهب الى المشعوذ وان تقابلوا تحاشوا بعض.

- محمد الفوراوي سافر إلى ريف كسلا لمتابعة أعمال الأرض التي زرعها بالبطيخ للعام الثالث على التوالي، وربح منها ما لم يربحه طوال عمره. خرجت مكية وصديقتها قاصدتان بيت المشعوذ في ظلام دامس يجثم على صدر المكان، لا شيء يرى بوضوح.. دلفا إلى بيت المشعوذ، وكأنهن يدخلن مقبرة عتيقة، رائحة البخور الجاوي تفوح من غرفة شبه مظلمة بصيص من ضوء اللمبة المعبأة بالكيروسين.. هذه الرائحة تذكرها بموت والدها، عندما كانت أيام العزاء تبخر بالجاوي ويمتلئ المكان والشارع بهذه الرائحة الحزينة والتي ارتبطت بالفقد وأي فقد؟ فقد من تأخر كثيرا في الرحيل وادمن تعذيب غيره بغلظته وقساوته انها رائحة لها وقعها على نفس مكية تحبها تكرهها تنفر منها تتقبلها تثير القرف وتستدعي البؤس.

- طفل في العاشرة من عمره يجلس على حصير مهترئ اغبش اليدين والجسم فرغ لتوه من اللعب بالتراب يقوم بتسجيل اسمك ويعطيك ورقة صغيرة كتب عليها رقم، فقد سبق ثلاث رجال واخذوا اوراقا وجلسوا بعيدا لا أحد يعرف الآخر فالأسماء عادة مستعارة.. أصوات نساء تصدر من داخل البيت يبدو أنه متزوج بأكثر من واحدة، صغار يلعبون ويصرخون، إنهم أبناء

الزوجات اللاتي ضمنهن الشيخ موسى إلى مملكته.. رائحة الطعام تعج في المكان من داخل منزل الشيخ، انه وقت العشاء، غطت مكية نصف وجهها بالثوب حتى لا يعرفها أحد وعندما نودي برقمها هبت لتدخل هي وصديقتها لكن الصغير طلب منها خلع نعليها وكأنهما بواد مقدس.. ففعلا.. قلبها مقبوض، وعينيها لا تستقران على نقطة واحدة، أفكار عدة وكلام كثير حاولت أن تنظمه وترتبه لتقوله للشيخ لكن المكان لا يسمح لها بترتيب كلمتين معا والرائحة التي أخذتها إلى بعيد، بالغرفة رأس ثعلب معلق وفروة نمر لامعة وقرون ابقار كبيرة، وأشياء أخرى كثيرة على جدران الغرفة وسقفها توجي بعالم آخر من الغموض والأسرار.. المشعوذ يلبس ثوبا سودانيا ناصع البياض، بفتحة رقبة واسعة وفوقه (جبة) حريرية خضراء، كرجالات الصوفية الذين يفضلون اللون الأخضر، بيده سبحة الفية من (اللالب) تراكم بعضها فوق بعض في دوائر متوسطة يلاعب أصابعه بها وأحيانا يمسك بشعرات ذقنه الرمادية. كانت مكية تحكي عن زوجها وقساوته وأنها تكرهه ولا تطيق العيش معه، تساعد صديقتها في سرد تعاسة صديقتها وكيف أنها تعاني من معاملته وتشعر بالتعب معه وأنها كادت تهرب ذات يوم لولا لطف الله.. (المشعوذ يتأمل نصف الوجه الجميل لمكية، يقوده تفكيره إلى تصور بقية الملامح من الوجه ولم يجزؤ أن يقول لها ابعدني اللثام عن وجهك لكنه سرح في رسم بقية الوجه من خلال العيون الواسعة والرموش الطويلة والحواجب كقوسين على أهبة الرماية)

-يتنح ويسكب مزيدا من بخور الجاوي على الجمرات التي أمامه بسرعة فائقة، فغابت الرؤية تماما حيث لم تكن اللمبة

تمكن من الرؤية الواضحة.. بادرها من وراء الدخان قائلاً وبلغة مكسرة: علاجك عندي بس على شرط..

- بفرحة كمن وجدت ضالتها -: ما هو الشرط؟
- اعتدل في جلسته كمن وجد ما كان يبحث عنه قائلاً:
بعدها تتخلصي من زوجك هذا الذي لا يعرف قدرك تتزوجي بالرجل الذي سوف ارشحه لك انا، لأني أعرف قدرك وأنت تستحقين كل خير وشكلك بنت ناس وعندك اخلاق وبابن الطيبة والجمال - فجأة يسقط جسم غريب من السقف ليرتطم على الأرض يبعث خوفاً آخر في ظلمة ووحشة - فيما ظل موسى هادئاً كأن شيئاً لم يكن..

- التبس عليها الأمر وهي خائفة تنظر إلى صديقتها التي تجمدت في مكانها - فقد جاءت لتتخلص من رجل لا تحبه تزوجته دون موافقتها، وبترشيح من والدها، فهل تأتي مرة ثانية ليرشح لها زوجاً وبنفس الطريقة... ما هذا الحظ البائس.. ما هذا الهراء يبدو انها بلا حظ؟ ردت بحزم: أولاً خلصني وأنا سوف أعطيك أجر عملي كما تحدده أما الزواج مرة أخرى هذا موضوع آخر في حينه..

- يسعل ويتطاير بعض الرذاذ من فمه ليقول في حنق: إذا لم نتفق فلا علاج عندي...

- تتدخل صديقة مكية لإنقاذ الموقف - تقترب منه قليلاً تتلثم قائلة: يا شيخ.. يا شيخ أولاً تخلصها بفضل الله وبفضلك، وهذا هو موضوعنا الذي جئنا من أجله وهي سوف تعطيك ما تريد.. أما الزواج فهي لا تفكر فيه والتجربة مرة ثانية تحتاج إلى وقت للتفكير واتخاذ قرار بهذا الشأن وقتها يحلها ألف حلال.. -

تطمئنه - ونحن دائما معك لمتابعة العلاج سبحان الله يمكن قلبها يرق للرجل اللي انت مرشح لها بس عالجها وخلصها.

- تقاطع: لا أقبل بشرط، أريد منك كلمة واحدة تخلصني تستلم حقك ككل الناس الذين يأتون اليك وتأخذ ما تقوله من المال ويا دار ما دخلك شر...

- يتراجع للوراء ويوقف حركة السبحة ذات الالف حبة قائلا: كنت سوف أرشح لك رجلا لا أفضل منه، لكنك رفضت من البداية النعمة التي لا تعوض.. كنت سأ تزوجك انا.. وانت تعرفين من أنا شيخ موسى، كسلا كلها تعرفني، المال عندي والجاه، اسألني عن شيخ موسى.. نسائي كلهن مكرمات معززات كل سنة آخذ واحدة للأراضي المقدسة نحج ونعتمر ونتفصح ونرجع، طلباتهن مجابة.. وأنت بالذات سيكون لك وضع خاص لكن شكلك لا تريد زواج المرة ايه عندها غير تتزوج وتكون في كنف رجل؟..

- مكية غاضبة وقد همت بالخروج: أنا اريد الخلاص من زوجي ومسألة الزواج الثاني هذه بوقتها، تتمم في نفسها (كنف رجل ولا قبر يحفره ليدفنها في كنفه؟)..

* * *

في إحدى المساءات جاء حمودة ابن مكية الكبير حاملا معه بطيخه طويلة بلون أخضر غامق فهو يعلم مدى حب والدته مكية لفاكهة البطيخ.. لمكية علاقة خاصة بالبطيخ، فوالدها كان مزارعا وأهم ما كانت تنتجه ارضه هو البطيخ وفي موسم حصاده يمتلئ البيت بالبطيخ لذا ولدت علاقة خاصة بين مكية وفاكهة البطيخ

أحببتها كثيرا ولم تذكر حسنة واحدة لزوجها الفوراوي سوى أنه كان يأتي في المساء ببطيخة كبيرة ولا شيء غير ذلك يسعدها.. حمودة ابنها الذي درس في كلية التربية، وعمل مدرسا في ثانوية البنات، عاد إلى البيت وفي يده بطيخة اسعادا لوالدته، ابتسمت مكية وعلقت قائلة: مالها هذه البطيخة تشبه بطيخة محمد الفوراوي؟

ضحك حمودة وقد وضع البطيخة على الأرض وقبل يدي والدته معلقا: لا يا أمي هذه بطيخة ابنك حمودة لا تشبه بطيخة أحد اشتريتها لأمي الحبيبة..

- تغيب عنها الذاكرة قليلا وتركز بصرها جيدا نحو ابنها: من أنت.. ابني حمودة صغير وأنت رجل كبير ابني ليس في سنك.. بالأمس كان هنا، اشتريت له ملابس العيد وغسلت وجهه من ماء الزير لأنه طاهر ومبخر - تضحك - قلت له عندما تكبر لا بد أن تحب ثم تتزوج عن حب وتختار بنفسك لا تقل لأحد أنك تحب فلانة أو فلانة تحبك، معظم الناس لا يعرفون مقام الحب والعشق يلوثونه بكلامهم.. لا يحترمون نبضات القلب المحب يحسبون من يحب سيذهب إلى جهنم لأنه سيرتكب الرذيلة.... جهنم ليست مكانا للمحبين أبدا أتعرف ذلك..

- يحاول إعادة ذاكرتها: يا أمي الغالية أنا حمودة أقدس الحب وتزوجت عن حب واخترت زوجتي بنفسي ولم أقل لأحد أنا أحب أو اننا نحب بعضنا وعملت كل شيء كما قلت لي من زمان يا أمي يا حبيبي انا ابنك الطابع الذي يتفق معك في قداسة الحب..

- - تبعده عنها: لو كنت حمودة ابني لما اتيت لي ببطيخة ابني متعلم، البطيخة هذه شأن والدي ومحمد الفوراوي اللذان يعملان في زراعة وبيع البطيخ.. ليس لديهم مهنة إلا البطيخ ومع

ذلك لم يتعلموا أن الدنيا مثل البطيخ مرة ماسخة ومرة حلوة وأنها ستدور عليهم..

- يطلب من شقيقته أن تقطع البطيخة لشرايح حتى تأكل والدته التي مازالت تغني:

- المربود جانا من البطانة

- ابوبکر حامی حمانا

- المريود جانا من الصباح

- ابوبكر ود الصلاح

- یا بنیه سوی السّمح

- ابوبكر لون القمح

– الليلة جانا الليلة جانا

- يا أمي من ألف هذا الكلام ومن غناه؟

- استغراب: - إلا تدرى من غنى هذا..؟ لأنك ليس من غرب

القاش ولا من أبناها ألم أقل لك أنت رجل غريب عنا؟ هذا غناء

البنات لأبوبكر كانوا يغنون في (التمتم والدلوكة).. تعال الحفلة

واسمع، ستعرف لمن تغني الحسنات..؟ طبعاً لأبي بكر لون

القمح، ستتعلم كيف تكون رجلا شهما قويا وليس قاسيا.. اغانينا

تعلمك الشجاعة والمروءة ثم تترك وحيدا تدفع ثمن الشجاعة

والمروءة... هههههه تضحك..

- يقدم لها شرائح البطيخ اللذيذة: كلى يا أمى البطيخ، حلو

مثل كلامك اللى بيوحشنى واحب اسمع صوتك كل ساعة..

- تواصل الغناء: دعني أغني لأبوبكر... ليس وقت بطيخ

الآن..

استيقظت مكية مع آذان الفجر كعادتها لتؤدي صلاتها وهو الشيء الوحيد الذي لم يغيب عن ذهنها أو بالها رغم تدهور ذاكرتها فالصلاة كما علمت عماد الدين ومن لم يصل فهو كافر، والصلاة هي التي تميز المسلم عن الكافر وهي تنهاه عن فعل الفواحش والأعمال الشريرة.. منذ صغرها وهي تصلي، تعرف الكثير عن العبادات من (الخلوة) التي تعلمت فيها القرآن وحفظت هناك السور الصغيرة التي تقيم بها الصلاة، كم عوقبت لأنها لم تحفظ سورة البروج إلا بعد فترة..

قامت وهي تتمتم (أصبحنا وأصبح الملك لله.. الصلاة.. الصلاة يا جماعة) تعرف جيدا طريق الحمام، في ضوء الفجر الخافت تلمست يداها النحيفتان السور الطيني ثم الباب حتى امسكت بصنبور الماء واعتمدت عليه في جلوسها.. توضأت واثناء خروجها من الحمام كادت رجلها أن تنزلق جراء الماء الذي تدفق من مساء الأمس امام الحمام.. قالت بصوت مسموع: (يا لطيف.. يا لطيف الطف بعبادك)، بعض قطرات الماء تتساقط من وجهها واخرى تنساب عبر اخاديد (الشلوخ) إلى أسفل الذقن وجه وضاء ولامع.. ضوء الشمس يتلصص ليزيح الظلمة قليلا.. تمسك بالسجادة المصنوعة من (السعف) المهترئة الأطراف، والمعلقة على مسمار عتيق في الجدار الطيني وبقوة امرأة في خريف العمر مازالت بعنفوان الحماسة وحرارة القلب كما يقولون، تمسك بالسجادة وترمي بها أرضا كأنها تتحدى الزمن والهزال والتعب.. تقف كحرف الالف بعد أن لفت جسدها النحيل بثوبها السوداني وتماهت في

صلاة، ليس ركعتان بل عدة ركعات تنسى فيها نفسها وتدعو الخالق وتتضرع وتارة تبكي في دعاء غير معروف..

تصحو ابنتها وتخطب والدتها التي مازالت في صلاتها هائمة.. أدعي لي يا أمي ليعود زوجي ويعيدني إلى عصمته، يرجع لعقله، تضيف: هذا الرجل المجنون.. تواصل حديثها مع نفسها وهي في طريقها إلى الحمام لتتوضأ لصلاة الفجر قائلة (راجل عصبي ومجنون، كلما اختلفنا ذكر الطلاق، ولاني لم أنجب له أطفالا خلاص، الطلاق هو الحل ليتني كنت ربطه بطفل إلى يوم يبعثون الغريب في الامر اننى لم اطرق باب الاطباء لانجب له ولدا أو بنت بل طرقت باب المشعوذين الله لا وفقهم ازهموني كثير.. تسأل نفسها: هل أجلس بدون زوج؟ ماذا يعني؟ والله لن أجلس بلا زوج وإذا رفض اعادتي إلى عصمته تزوجت برجل آخر غيره وأحسن منه، الرجال كثير كالهم على القلب.. هه.. ما للمرأة الا زوج تحبه ويحبها ينسيها عذابات السنين ويغمرها عاطفة حتى تتفجر انوثة..

يا رب لا تحرمي من نعيم الدنيا اما الآخرة فهي برحمتك، وتدخل الحمام وهي تحدث نفسها بصوت خافت: (تخيلي أنني أتوسل لرجل كي يعيدني لعصمته بعد أن طلقني أترجاه لأكون زوجته ثانية وبشرطه هو.. صعب.. ما أتعس الحياة بهكذا شكل.. المرأة عندما تكون مكسورة الجناح بلا مال يستضعفها الرجل أما إذا لم تمنحه الذرية فالاستغناء عنها هو الحل ياااه) لا رحمة ولا ضمير، لكني لا أريد الرحمة، أريد علاقة زوجية بلا انتقاص سواء أنجبت أو لم أنجب.

- رفعت سجادة الصلاة وعادت إلى سريرها لترتب ما فيه، عقدت عقدة في (طرحتها) جيداً، سألتها ابنتها الخارجة من الحمام: ما هذا يا أمي الذي تربطينه في طرف الطرحة؟
- تخفي الطرحة تحت الوسادة بخفة: هذه فلوس العيد غدا سيكون أول أيام عيد الأضحى كل سنة وانت طيبة يا بعيدة.. بعد قليل سوف يكبرون لصلاة العيد ما أحلى تكبيرة العيد تخليك تشعر بأن الله معك يملأ كل الامكنة - تغطي وجهها بثوبها وتنتهي الحديث مع ابنتها -

- تسحب السجادة وترمي بها ارضاً قائلة: يا أمي عاد الناس في شهر صفر وأنت تريدين اضحية وعيد والله أنك في عالم ثاني - تكحل عينيها بجسد أمها الذي يرقد في طمأنينة وقالت مازحة: يا فرحتك بعيد الاضحى، فنونك في اللحمية يا أم الرجال (مرارة، شيه، كمونية وسلات).

- افرجت عن بعض وجهها وبصوت مسموع: العيد غدا خليكي من المرارة والكمونية، سوف نذهب لنتمرجح مع البنات ونلعب (الكشكوش) ونشتري البالونات وحلاوة (جعبات سكينة) وحلاوة (اللاكوم) والمشبك.. العيد سيكون أحلى لاننا سوف نشترى عصافير الجنة و(الكوليا) و(القماري) ولا (دخان عزبات) التي أحبها بلونها الاصفر الجميل ولا (عشوشيت) وطيور الجنة أصدرت تنهيدة سريعة وقالت: يا سلااااااااام..

- سوف انام مبكراً لأن العيد غدا لا تسهريني معاكى.. سوف نمضي مع صديقاتنا اللاتي حرمننا منهن بسبب ابائهن وأحياناً امهاتهن، تظهر ابتسامة خفيفة على وجهها كأنها تستعيد الطفلة التي بداخلها وهي تواصل ببراءة : وفي رابع العيد سنذهب لحضور

زواج (حلوم) أول يوم الحنة واليوم الثاني العزومة وبعدها (قطع الرحط) ثم الحفلة الكبيرة، والسيرة أحلى حاجة السيرة للبحر.. انتبهى يا مغفلة لا يفوتك العرس - تجلس وقد اخذت تتخير العيد أو تسترجع تلك الايام - هذا العيد فيه مفاجآت ربما سيتزوج علوبة بسلوى وربما يتزوج ابو عرجة من (ستهم) لأن زينب زوجته عايرته انه لا ينجب سوى البنات - تخاطب ابنتها التي مازالت واقفة فوق السجادة تستمع إلى امها التي تعيش ايام العيد الكبير: تعرفى يا بنت، انه حلوم كانت ستتزوج بشاب من (القضارف) جاء لزيارة أهله في كسلا وعندما رأى حلوم اعجب بها - قفز الفرح فوق ملامحها وهي تتحدث عن صديقتها حلوم :- (حلوم ما سمحة الطول طول والجسم جسم والشعر شعر والعيون زي الفناجيل والسنون براقا يشيل)، طلب هذا الضيف من أهله خطبتها له، لكن ابن خالها كان قد تحدث بشأنها من قبل لذلك تم زواجها بسرعة حتى لا تغير رأيها وتتزوج من الغريب..

- واقفة على السجادة ولا تقوى على ترك امها تتحدث مع نفسها ستغضب وستحاول الخروج من البيت كما فعلت آخر مرة :- يا أمي إذا كان ابن خالها شخص جيد كان بها اما إذا لم يكن كذلك فالأفضل أن تتزوج بالشاب الآخر الذي تسمونه الغريب..

- لم يعجبها الكلام :- صلى صلاتك واتركيني انام مبكرا فغدا يوم عيد والناس مستعدين والزوار سيأتون والعيدية من الماشي والجاي، أنت تكثرين من الكلام بلا فائدة، كل عيد وانت تأتى بالمشاكل والكلام الكثير، ما الذي يعنك في زواج صديقتي أو عدم زواجهن؟

- صمت برهة ثم تقول وقد تغيرت نبرات صوتها إلى هدوء وتفاؤل: إلا تعلمي أن العيد يغسل النفوس ويضيء دواخلها كالكهرباء التي نراها في بيوت ناس السكة حديد وبيوت الناس المرتاحين.. الكهرباء تجعل الليل نهار وكل شيء واضح العيد كذلك يضيء الدنيا.. لكن دعيني أسألك احنا ليه ما فيش معنا كهرباء؟ والله لوم على ناس الكهرباء يولعوا للناس الناعمين، ناس القروش، واللبس الحرير ونحن يخلونا في الظلام.. ما معنا إلا الفانوس واللمبة ظالمنا الله يظلمهم لكن بكرة ربنا ينور الكون كله من غير كهرباء من كهربته هو ونوره هو وحده لا إله إلا الله..

* * *

- مكية تعود إلى طفولتها في عودة الماضي البعيد ما يشغل حيزا في الذاكرة رغم قسوة والدها وسلبية والدتها.. تحكى لنفسها: (كنا أنا واختي حفصة وزينب وبعض صديقاتنا نذهب في العيد إلى البيوت التي تباع فيها الخمر البلدي (العرق) كنا نتفرج على أولئك النسوة اللاتي يبعن الشراب لرجال ملأت جيوبهم بالنقود، جاءوا لينسوا بعض مآسيهم ومعاناتهم، يشربون حتى الثمالة ويسقطون على الأرض أحيانا، كنا نأخذ منهم بعض النقود ونجري لا يقوون على ملاحقتنا، كم كنا اشقياء وغالبا ما يشتمنا هؤلاء بقولهم (اولاد حرام بلا تربية) وكأنهم هم الذين تربوا جيدا ! كنا نختبئ حتى لا يرانا أحد ثم نذهب بعيدا حيث المراجيح والالعاب والحلويات نشترى بتلك النقود كل ما نحب.. وقبل نهاية اليوم لابد من أن نصرف كل قرش حتى لا يلحظ اهالينا ويعرفون مع انهم يشكون في

غيابنا طوال اليوم.. ولو عرفوا الحقيقة قد نتعرض للعقاب وربما منعنا من الخروج في الاعياد الثانية السرية واجبة..

بعد العيد ترحل البهجة ونعود للعب مع صويحاتنا لعبة (بيت العرقي) أي اننا نعيد ما شاهدناه وما فعلناه، كنا نمثل ونؤدي الادوار التي رأيناها من بائعات العرقي والبعض الآخر يلعب دور الزبائن الرجال ونقلد تصرفاتهم التي نعرفها جيدا، كيف يتحدثون كيف يمشون كيف يشربون ويلحسون شفاههم ثم يغمضون اعينهم، بعضهم يكلم نفسه ويبيكي وبعض يشتم كل من تسبب في تعاستهم بعض ثالث يغوص في الصمت ويبدو عليه الحزن والالام، بعض اخير يكون ثملا وفرحا.. كنا نضحك كثيرا ونحن نؤدي تلك الشخصيات ونتقنها كأنا ممثلين محترفين والاشقياء منا يقومون بادوارنا في سرقة السكرى..

العيد قادم لنعود لشقاوتنا قبل العيد بشهور ونتفق على الاماكن التي سنزورها كالجبل (توتيل) السواقي لنأكل بعض البرتقال والجريب فروت ونسرق الجوافة والموز النيئ وفي طريق عودتنا نقطف خضارا كالطماطم والباذنجان والبصل والجرجير، كلما هو ممكن ونقسم بالله اننا اشترينا كل ذلك من العيدية..

تنشغل الخياطة الوحيدة في غرب القاش بخياطة ملابس النساء والبنات وتعديلها إلى آخر ليلة بمكينتها (السنجر) العتيقة تلبى كل الطلبات والاذواق وفي صباح العيد تسلم نفسها لنوم عميق وكل يعرف انها منهكة بسببهم.. لذلك تبدأ زيارتها في اليوم التالي وتحرص الصغيرات أن ترى جمالهن وسط الفساتين التي صممتها لهن بعناية.. هذا نوع من الشكر والتقدير تتقبله الخياطة برضى وفرحة وتدفع لهن العيدية وهي مبتسمة تتلمس جسد

الصغيرة تطمئن على حباكة الفستان على اليدين، الطول، الاكمام
و...الخ انها تعمل بإتقان ومع ذلك تراجع وتطمئن ولو رات عيبا
ولو صغيرا قالت : (أعيديه بعد ما تعيدي سوف اعدل لك هذا) ..

* * *

زاوية الطريقة القادرية تقع في وسط غرب القاش جوار البساتين
التي تسمى (سواقي) ليست بعيدة عن سوق غرب القاش المسمى
(سوق الشمس).. الزاوية تتألف من مكان فسيح هو مجموعة
بيوت طينية لشيخ الطريقة، مفتوحة على بعضها، بسط الرمل
الناعم على ارضها بحيث يجلس الناس دون أن تتسخ جلابيبهم
البيضاء.

لكل طريقة صوفية مبادئها واصولها في اقامة طقوس الذكر
ومديح المصطفى (ص) إلا أن زاوية الطريقة القادرية في غرب
القاش كان لها دور اجتماعي في توعية الناس بدينهم وبحسن
المعاملة والتعامل، كما انها تقوم بحل المشكلات الاجتماعية وكذا
القضايا التي تخص السكان كعقد الزواجات واصلاح ذات البين
والطلاق وكل ما يتعلق بحياتهم كمنازل النهر وتربية الابناء
وتعليمهم وحفر الآبار وغيرها من القضايا الكثيرة التي تساهم
الزاوية القادرية في حلها أو في حث الناس للاهتمام بها.

ليالي الذكر والمديح كثيرة لا يخلو اسبوع إلا وتقام الولائم في
المساء لحضور الزاوية والزائرين من غرب القاش وشرقه ومن
اماكن بعيدة خارج المدينة.. عادة تستخدم آلي (الطار) و(الدف)
بأحجامة المختلفة إلى جانب (الطبل الكبير)، وآلات أخرى
تتداخل مع اصوات المادحين لتعطى نغما وصوتا يحدث صدى في

النفس فيرتد إلى الافق حيث يتفاعل الناس بدقة الطبل أو النوبة في حركات منسجمة يهتز لها الجسم وتطرب لها النفس، حالة من الصفاء الروحي تبدأ تتشكل في نفس المستمع للذكر سواء في منزله القريب للزاوية أو في ساحة الذكر التي تكتظ بالرجال والأطفال، لون ابيض يرتديه الجميع وكأنها رسالة نقاء أو ايذانا بالدخول إلى عالم انقى.. يتحرر الذاكرون من ثقلهم الجسدي وتسبح ارواحهم وتتوحد المشاعر مع الكلمة التي تمجد النبي (ص) البعض يدور حول نفسه وبعض آخر يلهج (الله... الله... الله... الله... الله) بلا توقف مع تحريك جسده تارة يمينا وتارة شمال بعيون مغمضة وكأنهم يرحلون في عوالم اخرى، آخرين يقفون صفا واحدا أو حلقات يدورون في حركة واحدة وبانتظام.. اخذهم الفعل الروحي والنشوة، لا شيء هنا إلا الذكر (الله حي... الله حي.. الله حي) رائحة البخور ودخانہ يمنحان المكان خصوصية روحانية وروعة لا توصف، عبق من نوع آخر، الشاب الذي يحمل المبخرة ويجول بها وسط الزاوية لا ينسى السبحة الصفراء يضعها على رقبتة ويتحرك، يدور وهي تدور على عنقه تشكل حلقات سريعة انسجما مع الذكر.. اعلام خضراء وبيارق عريضة تزين أطراف الساحة في جمهورية المجاذيب، ترفرف طربا.. عشقا.. وهياما.. الحي في هذه اللحظة يسكن من الحركة وفي صمت اشبه بالخشوع تردد النفوس كلمة الله الله الله كل الكائنات والجماد..

الصغار يشابهون آبائهم في ارتداء الجلباب الابيض النظيف يحضرون ليالي الذكر وهم في أبهى حلة وقبل الانخراط في ساحة الذكر والذاكرين يتسللون إلى غرفة الطعام وهي غرفة قريبة من سكن الشيخ تطهى النساء بعض المأكولات كالأرز مع اللحم

واللقيمات والشاي، تجهز وجبة العشاء لرجال الحضرة رواد الزاوية.. الصغار يدخلون خلصة وبأيديهم الصغيرة يأخذون من اللحم والارز وكل ما هو موجود، آخريين عند باب الغرفة في الممر الضيق يراقبون، بالتوالي يأخذ الصغار نصيبهم من العشاء اللذيذ ويعودون إلى باحة الذكر، وبغفوية تامة دون أن يشعر بهم أحد يتلطفون، ينخرطون في الذكر وحركات الانجذاب.. اما عندما يحين وقت العشاء بعد الصلاة على النبي وآله والدعاء لمن حضر وللمؤمنين وكافة المسلمين يدعى الجميع لتناول وجبة العشاء، الصغار وفي تأدب بالغ لا يزاحمون الكبار، يقفون بعيدا وعندما يدعون إلى الطعام يأتون بتأن شديد مما يضاعف من حب الناس لهم..

أبوبكر أحد مرتادي الزاوية منذ صغره حتى عندما صار شابا لم يترك الزاوية وحلقات الذكر والتلاوة وما يذكره هو أن يداه (الغبش) المشققتان كانت تفضحانه، فآثار الاكل - الزيت - تبدو عليهما أكثر من غيره، لذلك لاحظ أحد العاملين بالزاوية يدي أبوبكر - الغبشة - المشققة، كيف أحدث الزيت فيها شكلا اشبه بخارطة صغيرة ذات لونين، من يومها عرف أن هناك مجموعة أطفال يتسللون إلى غرفة الطعام ويأكلون من كل الاطباق باعترافات ابو بكر الخطيرة التي اسفرت عن تخصيص - صواني - للصغار فيها كل ما لذ وطاب.

ابو بكر من مريدي الطريقة القادرية منذ نعومة اظافره يحفظ كل الاذكار والقصائد، تعلم القرآن وتجويده بالزاوية، حفظ قصص الانبياء وغيرها من روائع السيرة النبوية، حتى صار من المقربين لشيخ الطريقة ولآخرين من كبار شيوخ الطريقة.. لكن ما حدث

لأبوبكر كان أكبر من أن يحتمله ففضل مغادرة كسلا، حاملا آلامه، ترك الزاوية وقلبه معلق بها فقد تزوجت من ارادها شريكة حياة ولم يمهل حتى يوسط شيخ الطريقة القادرية مثلاً أو آخرين من كبار القوم في غرب القاش.. انكسر قلبه وضاع حلمه مبكراً.. لكن دقات الطبل وصوت الدف واصوات الذاكرين مع هدير النهر مازالت ترقص داخله يرتد الصوت في اعماقه، يبكي حتى احمرت عيناه وهو يرى معشوقته لآخر لحظة تزف لغيره.. تمنى لو تزوجها يوم واحد شهر واحد عام واحد.. تمنى لو تحدث معجزة تنهى زواجها من محمد الفوراوي وهو يدري أن ذلك ضريا من المستحيل.. تمنى لو ينسى كل شيء لو جوفه يبرد قليلاً.. ناره تخمد الآن وينام لو ذاكرته تؤخذ منه لو تموت أو تتحلل حتى لا يذكر أحداً.. ينسى، يرحل عن نفسه، يترك كل شيء يذكره بها. طيف محبوبته اقوى من النسيان.

* * *

مكية لم يغب عن بالها ذلك اليوم الحزين الذي دخلت فيه صديققتها وردة (الكركون) أي قسم الشرطة نيابة عن والدتها، التي تعاني من حالة نفسية قادتها إلى الدخول في مشاجرات مع نساء الجيران والأطفال الذين كانوا يرمون الاوساخ أمام باب بيتها، فما كان من أم وردة إلا الذهاب إلى اهاليهم لمنع تكرار ذلك ثانية.. لكن الامهات اتهمنها بالجنون وأنها تدعى وتتهم وأن أبناءهم لا يفعلون ذلك! شعرت أم وردة السيدة الخمسينية انها اهينت باتهامها بالجنون وبالكذب فانهاالت على النسوة بالشتم والسب وأنهن بلا حسب أو نسب وأنها بنت فلان من أعيان البلد فقد كان

جدها هو العمدة وأن اهاليهن كانوا كالنجاج خلف العمدة لا تاريخ لهم ولا ذكر.. استاءت النسوة من كلامها، حاولن الاقتراب منها وهي التي تعمدت أن تكون بينها وبينهن أكثر من عشرة أمتار أي مساحة الطريق الرملي الذي بين بيتها وبيوت جيرانها في الواجهة. سددت لها شتائم عدة لكنها هددتهن بأنها ستحرق بيوتهن المبنية من (القصب والخشب) بل ستحرق الحي بكامله.. دخلت بيتها وتركتهن في هرج ومرج.. استرخت على سريرها الخشبي بعد أن طرحت رأسها على ثوبها ونامت وفي قلبها حزن على ما حدث.

لم تفق إلا على اصوات رجال ونساء وطرق على الباب بشدة، أم وردة ليس لديها ابناء ذكور كبار وردة هي البكر وثلاث بنات اخريات ثم الحسن والحسين الذين لم يبلغا الثامنة عشرة.. طرق قوى على الباب. تفتح وردة الباب لترى عددا من رجال الشرطة ورجال من الجيران ونساء وقفوا امامها كسد بشري وأطفال يحاولون من بين أجساد الرجال والنساء المتراصة أن يدخلوا رؤوسهم الصغيرة لعل وعسى يرون ما يحدث جيدا.. وردة تسألهم في براءة وخوف: (ماذا تريدون؟) رد عليها العسكري: (نريد لأمك تحضر معنا إلى قسم الشرطة..) وردة وقد ازدادت خوفا: (أمي تذهب للقسم.. لماذا... ماذا فعلت.. حرام عليكم) يقاطعها رجل ملتح من حارتهم: يا بنتي مافش حاجة فقط تذهب معهم لأخذ اقوالها وتعود ونحن معاها..)

- وردة وقد علا صوتها وهي خائفة على أمها: اقوالها في ماذا؟ أمي لم تفعل شيئا هي نائمة الآن، اقصد مريضة.. اذهب معكم انا...

- رد العسكري بنهرة: هيا أسرعى.. نادي أملك لا وقت لدينا
نضيعه معكن..

- وردة بقوة يخالطها تعصب: لأ.. لن تذهب أُمي معكم
واحبسوني انا.. خذوا اقوالى أنا أُمي لم تفعل شيئاً.. أنا التي فعلت
كل شيء.. أنا التي تشاجرت مع الجيران - دموعها تسبق كلماتها -
أُمي لأ... أُمي لأ... أُمي لأ.. (لأ)

- تأتي الام من الداخل على صوت بكاء ابنتها وردة، لبست
ثوبها على عجل وانتعلت حذاءها بسرعة، وقفت امام الجميع، لم
تكن خائفة ازاحت ابنتها وردة نحو الداخل لتكون هي في الواجهة
قالت مخاطبة العسكري: (خير يا ولدى...) رد عليها: أنت بهانا
محمد علي؟

- بهانا: نعم.. أنا بهانا محمد علي..
- العسكري: أنت مطلوبة في القسم لأخذ اقوالك! اصحاب
الحي اشتكوا قالوا إنك هددتهم بحرق الحي كاملاً.
- بهانا وقد عقدت ما بين حاجبيها: أنا هددت لأن النسوان
كلامهن كان جارحاً بالنسبة لي لكن ما حد يحرق بيته ومكان
سكنه..

- العسكري: لا يهمني هذا، المهم.. لازم تجي للقسم لأخذ
اقوالك.. اصحاب الحي اشتكوا إنك هددت بحرق الحي كاملاً.
- بهانا: أنا هددت؟ وهم ما قالوا ليكم العملوا معاى؟
- العسكري: لا يهمني الكلام دا هددت ولا ما هددت هيا
تعالى إلى القسم لأخذ اقوالك وهناك قولي كل شيء..
سيارة الشرطة التي تجمع حولها الناس كحدث مهم، داخلها
ثلاثة عساكر مع السائق، توحى بالرهبة وان هناك مصيبة ما

حدثت أو ستحدث رغم اهتراء كراسيها وبهتان لونها.. ابو شداد رجل كبير في السن يعاني من آلام في الظهر، خرج متوكأ على عصاه قائلاً للعسكري: يا ولدى دا كلام نسوان ساكت انتوا حكومة وعارفين كيد النساء، يعنى بهانا لا هددت ولا حاجة ولا قاصدة تهدد - محاولا منعه من اخذ بهانا إلى الكركون - يطلق سعة كانت واقفة في حلقة قائلاً: يا ولدى اقصروا الشر وما في داعى للكلام دا هم ناس حي واحد، يعنى أهل.. مرة زي أمك تأخذها الكركون والله لوم عليك وعلى الحكومة الجابتك.. يسعل ويظهر تعبته..

- العسكري وبكل ادب مع حرصه على تنفيذ المهمة: أنا يا والد عبد المأمور وعندي أمر بإحضارها واوعدك انها ستعود بعد اخذ اقوالها - يوجه اوامره لبهانا -: هيا اطلعي السيارة..

ابنتها تمسك بها وتساعدنها للصعود، يجلسان متلاصقتان ووردة تمسك بيد بهانا بقوة قائلة لها: لا تخافي ربنا معاك وانا معاك لا تخافي أنا سوف اعترف بأنني أنا التي هددتهم وانا عملت كل شيء.. وتضيف في تحدٍ: والله العظيم ارجع لهم مش اهددهم لكن امسكهم على واحدة واحدة واضريهن وآخذ بثأرك يمه النسوان الحاققات، يشتكوا أُمي للحكومة طيب والله لاعرفكم واروريكم، الى زى بهانا يشتكوها ولا يتناولوا عليها، لكن الدنيا تعاكس الشريف دايمًا وتدى الهين أكثر مما يستحق، لكن ما يهملك يا بهانا.. أحد العساكر يلتفت لوردة ويهز رأسه في اشارة لعدم الاسترسال في كلام كهذا..

- بهانا - غاضبة وتبدو أكثر تماسكا -: آخرتها أنا بهانا اروح الكركون.. ما اشتكيتهم أنا وهم قالوا على مجنونة وشتمونى وفوق

هذا وذاك عيالهم يرمون الاوساخ ببابي.. رجعوا هم يشتكوا قليلات
الاصل.. صحيح زمن اغبر وابن كلب.. نسوان أي كلام
- وردة تطمئن بهانا: ما في عوجة نحن سنأخذ بحقنا اليوم
ولا بكرة وخلي الحكومة تنصفهم..

- العسكري - مشيرا بيده: هيا انزلا، وصلنا...
- تتردد بهانا عن الدخول إلى مبنى الكركون تشعر بإهانة
وأنها ظلمت، لكن ابنتها تمسك بها وتشد من ازرها...
الضابط المكلف بالتحقيق وجهه عكر كآخر الشهر كما تقول
وردة.. مجبص بالبدلة العسكرية تقول تمثال أو صنم لا يحمل أي
مشاعر انسانية لا في شكله ولا في صوته الجاف كسيارة عطلانة..
اجلس بهانا امامه فيما طلب من وردة الجلوس بعيدا..

- الضابط في حزم: اسمك وسنك وعنوانك؟
- بهانا في ثقة: ما بتعرفني؟ كيف جاييني وانتو ما تعرفوني؟
- الضابط متضايقا: اجيبي على قدر السؤال.
- بهانا وقد اعتدلت في جلستها واخذت نفسا عميقا
وأطلقت هواءً فاترا: أنا بهانا بنت العمدة محمد على محمد أبو
الرجال اللي كان حاكم البلد.. كاف الولايا الراجل البجل العقد..
- الضابط بنهرة: سألتك عن اسمك ما قلت ليكي قولي شعر
- بهانا في هدوء: أنا بهانا محمد على محمد أبو الرجال.
- الضابط: سنك، يعني عمرك كم سنة؟
- بهانا تسرح بنظرها بعيدا: سنة اربعين لما القاش كسر كان
عمري عشرة سنوات.

- الضابط وقد نفذ صبره: يعني عمرك كم؟
- بهانا: أنت حدد أنا لا اقرأ ولا اكتب..

- الضابط متجاهلا ما قالت: عنوانك؟
- بهانا: عنواني الحي الذي أخذتوني منه..
- الضابط: أنت متهمة بتهديد نساء الحي بانك سوف تحرقين بيوتهن المبنية من القش والاختشاب ما قولك؟
- بهانا - تبدو كنمر يحاول الهجوم -: بيوتهم محروقة من زمان ما محتاجة حريق، سواد نياتهم حرق الاخضر واليابس جاب لهم الغلا والحر والبعوض والملاريا.. البيوت يا سعادتك تتعمر بالقلوب السمحة، لكن لما يكثر القيل والقال تنشف (الواطة) أي الأرض وتبقى جهنم ويبقوا الناس شغالين بالفارغة، السودان دا بلد خير لكن بعض الناس ما وش خير نحن كان شمرنا وانشغلنا بأنفسنا وبشئونا ما كان الحال كدا لكن الفاقة والانطلاقة خلت نسوان زي ديل يجيبوني أنا الكركون - تدق على صدرها بيدها اليمنى قائلة -: أنا بهانا يحصل لي كده؟
- الضابط يبدو عليه الاستغراب مما تقول وهي التي وصفت بالجنون: ما جاويتي على السؤال، ما قولك على التهمة المنسوبة لك أنك هددتي بحرق الحي؟
- بهانا ترد بسؤال: طيب ليه ما حرقتة من أمس لو أنا فعلا هددت؟
- الضابط متنفزا: اسالك تردى على بسؤال؟ ردي من فضلك أنا ما عندي وقت
- بهانا: دا وقت الحكومة ولازم الحكومة تسمعنا فيه، من زمان وهي ما بتسمع إلا نفسها عشان كده بتعمل اللى في نفسها بس ولا همها المواطن ولا معاناته.. يا حضرة أنت عايزني اعترف واقول ليك هددت النسوان واني عايزة احرق الحي وانا من سكانه؟

الحكومة تسمع وتصديق كلام النسوان الفارغات وتكذبني انا؟ يعلو صوتهها: أنا ما اشتكيتهم لما قالوا على مجنونة واشاعوا في الحي اني مجنونة والناس بقت تتعامل معاي على اساس اني مجنونة، يجوا يشتكوا هم للحكومة والله عجائب؟ ضريني وبكى وسبقني واشتكى. ولا كيف؟

- الضابط منفعلًا وقد انتصب ودار دورة كاملة حول بهانا قائلا: يا بهانا أنت متهمة لا تضييعي وقتي اعترفي وخلصينا..

- بهانا وقد ثبتت نظراتها تجاه الضابط: لما قالوا اني مجنونة ودا اتهام أكبر من اتهامهم لي كنت ناوية امسك كل واحدة من رقبتها اخنقها وارميها فوق اختها لكني لم افعل.. حتى لا أوكد كلامهم باني مجنونة.. تقف طولها وتقول: اسمع يا ولدى أنا كان ابوي عمدة البلد دي واجداد دي كانوا عمد من قبل الاستعمار وابوي آخر عمدة مات من عشر سنوات قاومنا الانجليز وخرجناهم ودفعنا ثمن معظم رجال بيت ابو الرجال استشهدوا ولينا تاريخ مكتوب ومعروف وما طالبني حليفة ما في يوم جات مرة لابوى وما مسح دمعته وما حل كربتها، كان بشوف كل الولايا بناته واخواته، العدمانة يديها، والعريانة يكسيها، والما عندها أهل يأويها ويزوجها ويستر عليها اكيد سمعت عنه ابوي محمد ابو الرجال.. كان هو الدولة في البلد دي وجدي ابو الرجال الكبير لما الانجليز طلبوا منه يتعاون معاها رفض ورفع سلاحه وطردهم من داره.. تستطرد قائلة: للأسف والدي ما كان عنده اولاد ذكور أنا بنته الوحيدة، الليلة جاية الحكومة تحقق معاي في كلام زي دا؟ أنا يا ولدى ما مجنونة احرق سكني وجيراني لكن كلام النسوان معاي أمس ما كان مؤدب ولا فيه احترام، من غيرتهم منى وحسدهم..

صراحة اترفزت وزعلت منهم وهددتهم عشان اخوفهم بس.. هم ما خافوا من الله ونار جهنم ح يخافوا من نار القصب؟

- الضابط وقد نفذ صبره: يعنى معترفة أنك هددتهم؟
- بهانا في تحدى: اكتب هددتهم.. الليلة وبكرة كمان بهددهم لو أنا الغلطانة أو البادئة.. اكتب - تشير بأصبعها للمحضر الذي يكتب على دفتر مهترئ وقد بهت لونه..

- في هذه اللحظة يطرق باب مكتب التحقيق محمد الفوراوي زوج مكية، طالبا من الضابط السماح له بالتحدث معه قليلا.. قائلا: سعادتك أنا محمد الفوراوي جار الحجة بهانا محمد على ابو الرجال بنت العمدة ابو الرجال، اطلب من سعادتك السماح لي بأن نحل المشكلة بين بهانا ونسوان الحي وديا ونصالح كل الاطراف مع بعضها - مؤكدا وباحترام شديد -: مهما كان فنحن أهل وجيران ولا يجوز توصل مشاكلنا للشرطة، الشرطة للحاجات الكبيرة وللقضايا البتستاهل، وان شاء الله ربنا ما يجيب الشينة، بعد اذنك اسمح لي بالتدخل وربنا يوفقك دنيا وآخره.

- الضابط - يبدو عليه التردد -: أنا مقدر موقفك بس لازم نستكمل التحقيق..

- يقاطعه محمد الفوراوي: بعد اذنك أنا بخلى نسوان الحي يتنازلوا عن الشكوى ونحل المشكلة والامور ترجع كما كانت، الموضوع ما يستحق سعادتك تضيع فيه وقتك الثمين أنت زول ماك هين ولا حق القضايا دى..

- الضابط وقد ارخى تجاعيد وجهه قليلا: طيب لازم تعمل ورقة بالكلام دا واقصى حد بكرة في التاسعة صباحا تجيب الطرفين

الشاي والمشكو بها بهانا ويوقعوا على التنازل والتصالح تقديرا لك ولدورك في الصلح وعمل الخير..

- محمد الفوراي مبتسما: شكرا يا حضرة الضابط والله دا كان عشمنا فيك وربنا ما يحرمنا منك ولا من خدماتك..

- الضابط موجهها كلامه لبهانا وهو يحبس ابتسامة كادت تظهر: يلا يا بهانا ابو الرجال روجي بيتك انتي وبنتك واتصالحو مع جيرانكم وما في داعي للتهديد والمشاكل.. اضاف: انا عارف انتي بت ابو الرجال واسرتك كمان معروفة وتاريخها موجود في الكتب احنا بس كنا نقوم بعملنا وواجبنا.. سامحيننا.

- لأول مرة تفتخر مكية بزوجه محمد الفوراي فقد وقف وقفة رجال مع قريبتها وردة وامها بهانا بعد أن كلمته مكية دون أن تطلب منه اية مساعدة فهي تعرف انه لن يلبي لها أي طلب صغيرا أو كبيرا فهي كما تقول دائما (غاسلة يدها من محمد الفوراي). لكن الغريب والعجيب معا انه ظهر بمظهر الرجل الشجاع والشهم وكان حديث الحي لأسابيع، كيف انه اقنع الحكومة واخرج بهانا من الكركون معززة ومكرمة هي وبنتها، انه رجل شجاع وكفاء وقادر على حل المشاكل في الحي وانه (مقنع الكاشفات ومدخور للبلية الجات) كما يقولون، وقد تحدثت عنه بهانا كثيرا في الحي وزادت شوية من عندها مما جعله في صورة أفضل مما عرف عنه..

الرقصة المقدسة

- ومما تتذكره مكية مع رشفة فنجان القهوة الاول في ظل (الضحى) ورائحة البخور الصندل تفوح لتملا الصدور المتهلفة لهذه الرائحة المميزة والتي لها وقعها في نفوس كل السودانيين، فالرجل عندما يشم رائحة الصندل المحروق تتحرك فيه اشياء كثيرة، في هذه اللحظة بالذات زوجته تشتاق اليه وتدعوه لليلة سعيدة، والشباب غير المتزوجين يبلعون حسراتهم على رائحة تطل عليهم وتذكرهم بأسى انهم بلا زوجات بلا ونيس وبالتالي بلا ليالي وبلا عطر (الخمرة)¹ وبخور الصندل.. هذه الاشياء يحرمها المجتمع على غير المتزوجين، حتى الحنا لا تتخضب بها الفتيات غير المتزوجات إلا في الايدي فقط وغالبا ما تكون يد واحدة، ربما بغير قصد، فهذه العادات والتقاليد بغرض تمييز المتزوجة عن غير المتزوجة، حرمان لصالح غير المتزوجات، ربما..

- تتذكر مكية وعلى وقع (الونس) الجميل مع بعض جاراتها حيث تكون معهم تارة وتغيب تارة أخرى حسب ذاكرتها المزاجية التي تفتح ملفات ولا ترضى اغلاقها أبدا وتغلق أخرى حديثة وأنية ولا تقوى على فتحها، لكنها في هذه الجلسة الحلوة استدعت ذاكرتها من عمق بعيد وقالت: (غرب القاش كانت تتميز بلياليها الغنائية وسهراتها التي تبدأ عصرا بأغاني السيرة والدلوكة ثم بالغناء

¹ الخمرة: عطر سوداني يتم اعداده من عدة عطور فرنسية ويخلط مع الصندل ويترك ليتخمر طويلا، له رائحة جميلة، نفاذة وقوية تستخدمه النساء المتزوجات.

والآلات الحديثة.. كان أهل غرب القاش ينتهزون أي مناسبة سعيدة ليقيموا حفلا يحضره القاصي والداني فالأحواش الكبيرة وأشجار النيم ترمي بظلالها يمنة ويسرى تشجع على اللمة، الناس متعاونون في مناسباتهم.. كان عزالدين ود امانة من هواة الحفلات رغم أن أهله تركوا غرب القاش منذ عشر سنوات ليسكنوا في شرق القاش (حي المربعات) إلا انه مازال يزور اصدقاءه دائما بغرب القاش العشرة لا تهون ابداء، وغالبا ما يقود دراجته الهوائية قادما من مصنع البصل مكان عمله إلى غرب القاش وليس إلى حي المربعات، كما كان يفعل في السابق اما عندما تكون هناك حفلة من حفلاتهم الصاخبة التي يسعدون بها كثيرا ويحاولون احيائها كليل مقدسة بالرقص الجميل والموسيقى الاحلى، مع اصوات الفئات الرائعات اللاتي يجدن التغي بأغاني السيرة والحماسة وأغاني البنات وبعض الحديث والجديد من الغناء. إلا ويستعد عزالدين ود امانة، يستأذن من مصنع البصل مكان عمله تحت أي مبرر وغالبا ما يكون تعب والدته آمنة، يعود سريعا ليستحم ويرتدي بدلة من بدلات عم حمودة الغسال - والده - دون علمه ويأتي عصرا وهو اشيك الشباب واوسمهم فوالدته عربية من (عرب البطانة) ووالده من قبيلة (الدينكا) الذين استوطنوا كسلا منذ عقود.. جاء عزالدين بلامح عربية وتقاطيع موزونة وفوق هذا وذاك كانت البنات تحبه لاسلوبه ولباقته في الكلام.

- في ختان ابناء نفيسة الحمرا دعي خالهم حسين الحلبي اناس كثر إلى حفل الختان وبدأ التجهيز للحفل منذ اسبوعين والعزومة كانت غداء للجميع فقد ذبح لهم ثورا كبيرا واربعة خراف، أهل المنطقة سيأتون وهناك ضيوف من شرق القاش.. لمجرد أن

يرتفع صوت الميكرفون يتوافد الناس لمكان المصدر وقد قالها امام المسجد الشيخ حسب الله ذات مرة: (والله المايكرفون حق العرس ولا الطهارة بس يبدأ، تلقاهم زي يوم الحشر كلهم ماشين لمصدر الصوت، نسوان ورجال وأطفال ماشين يعملوا الواجب، لكن مايكرفون المسجد كل يوم يدعوهم للواجب الرباني ما تلقى إلا القليل.. ناس دنيا.. الله يهديهم بس وقرر في نفسه ان تكون خطبة الجمعة القادمة ستكون حول هذا الموضوع).

- حسين الحلبي أخو نفيسة الحمرا (يقصدون البيضاء والحلبي أي ذو البشرة الفاتحة كأنه من فئة الحلب المقيمين في غرب القاش ويعود أصلهم إلى حلب بسوريا وهم موجودين بغرب القاش ولهم حي خاص يحمل اسمهم (حي الحلب) لا أدري متى دخلوا السودان وكسلا تحديدا وما هي الظروف التي جاءت بهم رغم لهجتهم الشامية إلا انهم بدأوا ينصهرون بالتزاوج مع سكان المنطقة ولهجتهم المهجنة (سوداني وشامي) لكن نفيسة وشقيقها ليسوا من فئة الحلب بل من شمال السودان استوطنوا غرب القاش في تاريخ لا يعلمه أحد.

- مازالت مكية تسرد وقائع ذلك اليوم، حفل الختان لثلاثة أطفال ذكور وشقيقتهم الصغرى.. بدأت وقائع الحفل في الرابعة عصرا وقد رشت الأرض الترابية في حوش نفيسة بالماء حتى الشجر اغتسل ذلك اليوم بالماء لتفوح رائحة الأرض الثرية بعبق الخصب والثراء ورصت الكراسي التي تم استئجارها من الشرق ونصبت السماعات في الاتجاهات الاربعة حتى يعم الصوت كل ارجاء المنطقة.. وبدأت البنات في شد ادوات الغناء الشعبية (الدلوكات

والشتم بأحجامه المختلفة)² أغاني السيرة والحماسة في غرب القاش تغنيها المغنيات كبيرات السن اللاتي يجدن في مثل هذه الأغاني والكلمات اطراب للناس واشعال حماسهم خاصة الرجال والصبيان، تبدأ النسوة المغنيات على مقاعد خشبية (البنابر) المفرد (ببئر) وقائدة الفرقة تتوسطهم تحمل شتما مميزا اما بالحجم أو بالشكل وحولها عدد اربعة إلى خمس مساعدات لها كل تحمل شتم، يصاحب الشتم ضرب على الدلوكة.

* * *

- عزالدين ود امنة يدخل الحلبة في أول (عرضة) له، رقصة الحماسة التي سيدفع فيها جنيهاات يلصقها على جبين المغنيات حيث يبدأ بقائدتهن، ويدخل آخريين من شباب الحي ورجال كبار في السن يؤدون رقصة العرضة مع تمايل عصيهم بتأن واستمتاع، كل ينسج عالمه ومزاجه الخاص من خلال الكلمات والأنغام المتداخلة وزغاريد النساء التي تلهب الجو وتزيد من الحماسة. يتبادلون الابتسامات وكلمة (ابشر) تتردد.. اما الأطفال المقام الحفل على شرفهم يمتشقون السيوف في زي ابيض وايايديهم

- ² والدلوكة هي اناء مصنوع اسطوانى الشكل مصنوع من الفخار مفتوح من الجانبين يغطي بقطعة جلد رطبة وخفيفة، لتكون اطرافها ماسكة بالفخار بشكل يجعل القطعة مشدودة وهي تشبه الطبل لكنها من الفخار ومربطة بأغاني البنات توضع على الارجل ويضرب عليها بالأصابع وتعطى صوتا ناعما كلما كانت مشدودة بالنار جيدوا تم تعريضها على حرارة النار، والدلوكة آله عزف قديمة شكلت الحان جميلة لأغاني البنات في السودان، الشتم آلة يضرب عليها وهي بنفس المواصفات لكنها اصغر حجما بحيث يتم الضرب عليها بعود رفيع مرن.

وارجلهم حمراء مخضبة بالحناء (الضريرة)³ على رؤوسهم وقد ربطت جباههم إلى الخلف بقطعة قماش حمراء من الحرير وفي وسطها هلال ذهبي.. يجمعون نصيبهم من الجنيهاً التي تتطاير من عزالدين ودأمة المهووس بالرقص وبكل أنواعه من عرضه إلى (توست) إلى (سامبا) إلى رقص غربي حاول أن يؤدي العرضة بشكل أكثر إبداعاً مما لفت أنظار الجميع خاصة اللاتي كن يرمقنه بإعجاب واضح وقد ارتفعت أيقاعات الشتم والكلام المنظوم في الشجاعة والكرم (وعزالدين) عز العرب وتاج القبيلة والرجال في أمره عدموا الحيلة، ستار العروض الما بخلى هميلة)

- دفع كل الجنيهاً التي كانت بحوزته على هولا المغنيات المحترفات وحرق بعض سعراته الحرارية في رقصة العرضة حتى قيل أنه لن يواصل الحفل ليكمل رقصه الذي يحبه.. يبدو وكأنه خرج من حمام دافئ فالعرق بلل ملابسه وجعد شعره الذي كان مسرحاً بنعومة.. جلس على الكراسي وهو منهك لكنه سعيد فالمعجبات ما زلن يلاحقنه بنظراتهن وتعليقاتهن أنه أدى كما لم يؤدي من قبل وهذه مهارة لم يسبقه إليها أحد، عزالدين أفضل من يؤدي العرضة وكل أنواع الرقص، يفرغ طاقته في هذا العمل الممتع الذي يمنحه الكثير من الإعجاب والكثير من الإرهاق لكنه يزيل التوتر فهو عصبي المزاج وبعد حضوره لأي حفل وانجازه لرقصاته المقدسات ويكون هادئاً لعدة أيام وهذا ما لاحظته أصدقاؤه والمقربون..

³ الضريرة هي مسحوق عود المقلب وال صندل تطرح على رأس المختون أو العريس ويرش عليها أنواع من العطور يكون معطر الشعر لأيام.

- مكية مازالت تروى بإعجاب عن عزالدين والشتيم والدلوكة وتوقفت لتسأل: نحن في شهر شعبان ولا رمضان؟ ضحك الجميع وقالت جارتهم التومة: نحن لا في شعبان ولا في رمضان نحن في صفر.. مالك يا حجة نسييتي ولا اشتقت لرمضان..

- ردت وقد شردت بعيدا: لا.. رمضان وشعبان ما فيهم اعراس بس موت حتى الموت كان يختار الناس في الشهور الهادئة والمباركة يعنى شهر الحج لما توفت خالتي ناس كثير ماتوا معاها في نفس الشهر، واخذت دموعها تسترسل وجهها اخذ ملامح الحزن..

- جارتها: مالك يا حجة ما كنا تمام.. ليه الحزن وتعكري علينا البن وطعمه؟

- مكية: تذكرت خالتي كانت الوحيدة اللى تكرمنا لما ابونا يقسى علينا كانت تمسح رؤوسنا بالكركار* وتدينا قروش نشترى كل اللى عايزنه.. تتنهد يا حليلها. خالتي كانت تزرع الحنة وتقول لبنات اختي احننهم العام الجاى للعيد، كانت تخبى القروش لينا وكل حاجة حلوة..

- جارتها تحاول اخراجها من مزاج الحزن الذي حل عليها فجأة: ما كملتى لينا الحفلة بقيتى في عزالدين ود امنة، اكيد كنتى معجبة بيهو؟

- مكية تضحك: لا والله وقتها كنت متزوجة، لكن الولد ما شاء الله عليه كان وسيم ورقاص وما في زيه.

- جارتها: طيب قولي لينا بعد حفلة المغنيات حصل شنو؟
- مكية تعتدل في جلسها وتقول: ولا حاجة خرجوا الرجال وبدأت حفلة النسوان بالدلوكة من بعد المغرب لما العشا بشوية،

الناس ما شعبانة والبطون مليانة، الرقص يكون تمام - تطلق ضحكة. جابو الفنانة (حرم) وهي دائما تجي ومعاها اربعة مساعدات اثنين يضرين على الدلوكة والبقية راقصات لكن ما راقصات..

- جارتها: ايوه كيف؟ أعجبها وصف المشهد..

- مكية وهي ترتشف الفنجان الرابع من القهوة التي تم تكحيلها بمسحوق البن المحمص والذي كان معدا لهذه اللحظة الكحلا: لما ادخلت الفنانة (حرم) الزغاريد كانت تهز الساحة وصداها يدوي، الناس نفوسها مليانة بالفرح ومستعدين للغناء والرقص فهم ابناء تلك اللحظة الجميلة، يعيشون السهر الموشى بالطرب الاصيل خاصة أغاني البنات والتي تسمى (التمتم) التعاطي معها يعنى فتح نوافذ للحب حب الأرض، حب الناس، حب الحبيبة، حب الكأس، حب الحب نفسه لكى يكون للحياة طعم ولون.. بدأت الفنانة بأغنية حماسية كمفتتح ذكرت فيها حسين الحلبي خال الاولاد لكنها لم تسمه بحسين الحلبي لأنه عيب كلمة حلبي فهي أقرب إلى الشتيمة، وعرجت الفنانة ومدحت نفيسة اخت الحلبي أم الاولاد مع انها ما تستاهل لكن الفرح فرحهم ومن الواجب كلمتين في حقها ولو مجاملة.. رقصت النساء الكبار بأثوابهن التي اشرعت كأجنحة الحمام انها الرقصة الكلاسيك (الرقبة) واعطين الشبال لبعضهن فالرجال ممنوعين من حضور حفلة البنات أو النساء رغم انها تقام في مكان مفتوح لكن العرف في غرب القاش يمنع الرجال حتى (البصبصة) من وراء (الصريف) فهناك اعراف يلتزم بها حتى السكرى، لأنها من قيم الحي العتيق.. أن رقصة الرقبة وكما قال أحد المهتمين ليس عزالدين طبعا قال:

(ان مصمم رقصة الرقبة في السودان أهدي إلى النساء رياضة رائعة وسهلة تمنع تجعدات منطقة الرقبة وتضيف جمالا للعنق بزيادة الطول والمرونة).. هنا النساء يلبسن الفساتين القصيرة والتي بأكمام رفيعة وكأنهن يضاهين أرقى الحسناوات في العالم بأناقتهن فالموضة لها متابعون وأنصار وكأنهن يقلن للعالم لسنا أقل انوثة أو جاذبية من النساء خلف البحر أو خلف الجبل فنحن أكثر جمالا وفاتنات ايضا..

- جارتها تعلق: يعنى كان الجو جو فن وهجيج ورقص.. اها وبعدين...

- مكية: تعرفي كانت الراقصات التابعات للفنانة يرقصن أو ينتفضن كالعصافير كل جزء يتحرك لوحده وكأنهن موصلات بكهرباء، وكانت الموضة هي المؤخرة الكبيرة والمتوسطة يعنى نوع من التنافس في الجسم الملفوف وابداع الرقص واناقة الملبس كل ما يصحى المفاتن والجمال، كل مقومات الانثى والدلع. وعندما ترقص الواحدة منهن تنسى نفسها وترضى نفسها والناس في نفس الوقت، وكأنها تؤدي طقوس مقدسة فهي لا تعبأ بأحد ولا تركز عينيها على شيء محدد، هي منغمسة في اداء المقدس امام جمهور يقدس معها ما تفعل والدليل التجاوب الروحي والنفسي من قبل الجميع والنظرات التي تتركز حولها بمشاعر متصاعدة ومختلطة والتشجيع المنقطع النظير.. تناغم من نوع خاص بين الراقصة والجمهور والفنانة والعازفات وبين الجو العام الذي يصمت ليستمتع إلى الغناء الذي يصل مداه، وكل من دخل الحلبة كان يؤدي رقصته الخاصة التي تضيف إلى المشهد العام والزغاريد تشق عنان السماء، لونية تعبر عن دواخل الاخريات اللاتي قد لا

يشاركن الرقص لكنهن حاضرات بكل تفاعل وهن في قمة المتعة والتماهي مع كل شيء في هذا المكان القصي من الكرة الارضية حيث لا جغرافية الا حضور الفرح وتضاريس الجمال.. أن دخول المساء لا يعنى سوى المزيد من الرقص المقدس والتجاوب واللاوعى بين ايقاع الدلوكة وصوت الفنانة وهي ممسكة بالمايكرفون لساعات، تحلق في فضاءات الاغنيات، كانت واضحة المخارج، تعشق الفن وتؤديه بعذوبة وسخاء رغم معارضة أهلها، لذلك هي تغنى في محيطها فقط (غرب القاش) بعد أن منعها شقيقها عن مجرد التفكير في احتراف الغناء أو مغادرة غرب القاش لتغنى في أي مكان آخر حتى لو كان شرق القاش أي في نفس المدينة وليس بعيدا عنها.. فكم من العروض المغربية رفضتها حرم تلبية لرغبة شقيقها واسرتها المحافظة ربما لحسن حظ أهل غرب القاش أن تكون حرم وصوتها الطروب لهم وحدهم.. ربما..

- جارتها مبتسمة في خبث: رقصتي يومها يا حجة؟
- مكية وكأنها ارتاحت للسؤال: كنت اهتز في مقعدي وكنت ازغرد كثيرا لكنى لن أنسى ذلك الحفل أبدا رغم اننى حضرت حفلات كثير لزواجات وختان وغيره، غرب القاش معروفة لو واحدة ابنها نجح من صف إلى صف عملت ليه حفلة (تقهقه) تستمر للفجر.

- جارتها: من العصر للفجر مبالغة!..
- مكية تؤكد: يا بنتي كان الناس على الفطرة ويعطوا الروح حقها.. كلنا نحتاج اللهو والفرح الدنيا فانية ولا يبقى إلا هذا الكلام..
لكن من يوم ما حددوا للفرح مواعيد متى يبدأ ومتى ينتهي أصبح الفرح قليل ومناسباتنا الحلوة ما ليها طعم..

- جارتها مؤيدة: صح والله.. زمان كان الناس يوقفوا للصلاة ويواصلوا ويخرجوا من الفرح وهم سعداء الان يخرجوا وهم شغالين نميمة في بعض وكلام.. والحفل ما حلو والعروسة شينة والعريس راسه كبير واهل العروسة شايفين نفسهم وام العريس متفلهمة...والفنان نومنا وخلي على الله حفلات الزمن دا..

- مكية كمن ذكرت شيء مهم: الحفلة دي استمرت لعشرة بالليل حفلة البنات لما (الرتاين) ملت الدنيا والرجال نبهوا حسين الحلبي ونفيسة اخته أن الفنان الذي جاء من الشرق منتظر دوره ولا ح يمشي، وكأنه غير مرغوب فيه....

- جارتها بفضول: وبعدين؟

- مكية: الناس دايرين غنا حرم مشتاقين لحفلاتها لكن مستحيين من الفنان ابو كرفته الجاي من الشرق.. وكلما قالت حرم خلاص، طلبوا اغنية ثانية لما جا حسين الحلبي ووشوش لحرم في أذانها، بعدها حرم غنت اغنية واحدة واعتذرت للجُمهور وقامت.. تستطرد مكية: حرم دي وجماعتها ما كانت تقعد على (البنبر) أي الكرسي الخشبي، كانت تقعد على كرسي كدا فخم بمخدرات ناعمة هي واللي معاها (حكومة والناس اهالى) ورا يا ركاب.. والله عظمة ما بعدها عظمة، احيانا يضع الله الموهبة في اناس لا تتوقعهم والصوت الغنائى ليس لكل الناس والحس الراقى كذلك.

- جارتها: الفنان الى جابوه من الشرق كيف كان؟

- مكية وبصوت هادئ وقد قل حماسها في الحكى: يعنى هو فنان حق الناس اللي يحبوا الاذاعة يعنى مقعد كدى يغنى لحسن عطية وللكابلى ومحمد الامين كلها اغاني ثقيلة إلا لو طلبوا منه الخفيف يغنيه.. أنا عن نفسي شفت عزالدين ود امانة رقص مرة

واحدة في اغنية خفيفة ما بحماسه المعروف وبعدين شلته نفسي
ومشيت، مزاجى من زمان في اغانى الدلوكة واحبها لانها تعبر عنى
وعن بنات جيلى وفيها كده حاجات خاصة بناس كسلا. انت
عارفة الدلوكة دى ما موجودة الا عندنا وفي بلد اسمها موريتانيا
وضرب الصوط والرقص المختلف بالرقية وبالمؤخرة وبالصدر
وبالشعر وبكل اجزاء الحسم دا عندنا نحن وبس.

آمادوا.. كسلا من مدن الجنة

عندما سمعت مهدية بائعة الخضار بزوبعة آمادوا ورؤيته للنبي (ص) في المنام وهو السكير الذي لا يصلي ولا يصوم، علقت بالقول: (الولد دا شكله اتجنن عديل لأنه الرسول (ص) بمقامه الرفيع لا يمكن يجي في النوم لواحد زي آمادوا، قاطع صلاة ومصاحب الهنود عبدة البقر قايم معاهم وقاعد معاهم.. ثم واصلت باستغراب: وكمان الخواجة الهندي اللي اسمه كومار صدقه وقال ليه يمكن النبي (ص) جاى يبشرك بالخير.. يبشر ليه شنو وهو ما يعرف من الاسلام كوعه من بوعه.. أنت عارف انه آمادوا دا ومن جنونه كان يقول: (يوم القيامة الاحراجات كثيرة تلقى اللي ظلمته واللي سرقته واللي خنته واللي كذبت عليه واللي والي، يعنى كلهم تلاقيهم، بعدين تودى وشك وين؟) أنت ما خجلت من ربنا جاى تخجل من الناس ، انت عندك وش يوم القيامة يا مبهدل؟ من عمايله بيفكر كيف يوم القيامة، راجل مجنون بجد واضافت بغیظ كمن يحاول اثبات تهمة ما: لا ولا لما سمع الامام حسب الله يوم الجمعة الفاتت يقول: (ان الرسول الكريم قال اربعة من مدن الجنة (مكة والمدينة ودمشق والقدس) آمادوا وهو بره المسجد لا دخل ولا صلى وبأعلى صوته قال: يا شيخ حسب الله وكسلا دي ما من مدن الجنة؟ وقال للناس: ما تخافوا يا ناس كسلا يوم القيامة الرسول ح يشفع ليكم كلکم ما تعبتوا أنتو في الدنيا دي وشقيتوا، الموية الباردة ما اتھنيتوا بيھا. وقال كمان: أنا

عارف يا حسب الله أن خطبك كلها بتاعت الجمعة عن القدس ومكة والمدينة ، كسلا دي واحوالها وناسها ما عاجبك؟؟ يعنى أنت تهملنا في خطبك تدعى لناس القدس واحنا نروح في ستين دهية، والحكومة تهملنا في مشاريعها؟ خلى ناس مكة ينفعوك.. والشمس الحارة لينا نحن تحرقنا لما نموت وعيشة الغلا لينا نحن والعمل الشاق لينا نحن وكل النازحين في كسلا.. شوف شوف يشير إلى (بشير) صاحب الكاروا وحماره منهك شوف يا حسب الله ما تعرف الحمار فيهم من الانهاك والتعب..! ههههه (يضحك)

مهديّة وهي الحاصلة على الشهادة الوسطى القديمة لكنها لم تجد عملا سوى (راكوبة) امها في سوق كسلا تباع فيها الخضار بعد أن اصببت والدتها بشلل نصفي اقعدها منذ سنوات، مهديّة هي الكبيرة التي تحملت عبء المسؤولية مبكرا انها نصف متعلمة وربع مثقفة، جريئة إلى حد ما وشاطرة في التجارة تشعر دوما بأن الهنود مسيطرين على السوق ووجودهم طاغي على التجارة ذات الوزن الثقيل في كسلا ولا تخفى ضيقها وتذمرها من كونها بائعة خضار حيث اصببت والدتها بجلطة تسببت لها في شلل نصفي اقعدها، وغالبا ما تصدر عنها كلمات تعبر عن رفضها لسيطرة الهنود على السوق في تجارة الاقمشة، مواد البناء، المواد الغذائية و.... الخ وآمادوا ينقل بعض الكلام عنها لكومار الهندي وهذا سر عدم الارتياح بين مهديّة وآمادوا.. لذلك عندما ادعى انه رأى في منامه النبي (ص) وقال آمادوا انه جاءه ونظر اليه وحوله هالة من نور عظيمة لم ير قبلها في الوجود.. استيقظ آمادوا من هول المفاجأة وسطوة النور والحضور وقال آمادوا: أهلا برسول الله حبيبي أهلا بسيدي وسيد البشر.. علقّت مهديّة: (جاءه نور من أي

لمبة فظن انه النبي (ص) ولم يحدثه شوفوا بس؟ النبي فاضي
لامثال آمادوا...؟ ما جا للاولياء والصالحين يجي لآمادوا عشان
يبشره بالخير كما قال له صاحبه كومار.. عشم ابليس في الجنة..
تقهقه عاليا) وتسال مهدية باستفزاز: يا خالة ذهبه انتى الهنود
دول جو مع الانجليز يعنى بقايا الانجليز ما كدى؟

- خالة ذهبه بابتسامة فاترة: شكلهم كدى جو مع الاستعمار
لأنه بلدهم كانت مستعمرة من بريطانيا.. توجه سؤالها لمهدية
كمن تذكر شيء مهم: انتى يا مهدية ما درستى للوسطى تساليني أنا
الما قرئت ولا دخلت مدارس؟
- مهدية - تضحك -: يا ذهباية أنا درست ومع مشاكل الدنيا
نسيت كل شيء.

- خالة ذهبه - تواصل اسئلتها الموجهة للمتعلمة حتى
الوسطى: طيب الارمن ديل جو مع منو ولشنو؟
- مهدية باستغراب: الارمن ناس (جيجو) والمصور
(استيف) وتصغر مقلتيها وتقول: دول من ارمينيا ما كدى؟
- خالة ذهبه: ارمينيا دى وين؟

- مهدية وهي تلم كومة (المقاشيش) وتربطها: أنا عارفة
ارمينيا وين؟ إذا كان الخرطوم ما رحتها ولا عرفتها إلا يوم مرضت
أمي رحنا عالجناتها في الخرطوم، لأنه مستشفى كسلا للحميات
وللنازحين والمرافقين قولى مستشفى للمريض المنتظر يومه..
تسأليني عن ارمينيا؟

- خالة ذهبه: تقولي وين تعلموا التصوير الارمن دول؟
- مهدية بسخرية: اهم شيء اتعلموا.. عشان يصوروا الصور
العكرة دي - مشيرة إلى حيث يجلس آمادوا..

- خالة مهدية كمن يحاول الخروج عن موضوع الارمن الذين لا اجابات شافية حولهم: انتى عارفة الانجليز لما دخلوا السودان ما كل الجيش انجليزي منهم هنود ومنهم شوية باكستان ومصريين ما بعرف جنسيات كثيرة المهم الهنود قعدوا وبنوا الحوش الكبير مشيرة إلى السور الكبير الذي يبدو من بعيد وعملوا داخله مساكن ومدرسة وحديقة كله داخل الحوش وجابوا اسرهم من الهند يعنى عاملين مدينة نيودلهى وسط المدينة ومسكوا التجارة في كسلا.. تسرد لمهدية محاولة اعطائها لمحة تاريخية عن كسلا: كسلا دى غزوها الايطاليين والاتراك والانجليز.. وكم يا ناس ماتوا في الغزو والحروب وكسلا صامدة وكل مشاكل الحبش والارتيريين تتحملها كسلا.. نزوح نزوح لما أصبحوا هم سكان كسلا والدليل - تتنهد - الاغاني الحبشية والارتيرية المفتوحة ليل ونهار في السوق.. صح انها حلوة والحنانها سمحة لكن البلد دي عايزة موسيقى سودانية موسيقة كسلا عشان الجاي ليها يشعر انه في كسلا مش في اسمرا يعنى ملامح كسلا الخاصة ما معروفة، ناس جاين من ارمينيا عشان يصوروا الناس الى عمرها ما اتصورت.. وناس جاين من نجيريا عشان يروحوا بيت الله الحرام وناس هاريين من حروبهم الاهلية وجاين من ارتيريا واثيوبيا وناس جاين من الهند وناس من سوريا ومن اليمن ومن السعودية وهات كله لكسلا...

- مهدية وهي ترتب المكان: شوفي يا خالة أنت متحاملة على الارتيريين والاحباش وانا متحاملة على كومار الهندي اتساوينا اوعى تقولي لي حسد ومن كلامك البتقولييه كل يوم.. ناس البلد ما قادرين يأخذوا فرصتهم والعيب ما في كومار وامثاله العيب فينا نحن.. وبعدين الى يشوف كسلا يقول والله ما غزاها غير الجراد...

تقهقه.. يعنى الانجليز ما صلحوا شارع ولا سينما ولا مسرح ولا مبانى عالية ما بنو إلا مبنى المديرية !والاتراك ما علمونا مهنة ولا فن والايطاليين.. كلهم بس يغزو، يقتلوا، يخربوا ويمشوا...؟ والغناء الاريتري دا قريب لاغاني الهدندوة ما في فرق.. بعدين انتى ما بتعرفي التعايش السلمى بين الشعوب؟

- خالة ذهبية: سمعت الكلام دا في الراديو.. لكن والله ما عارفه معناه شنو، ناس ام درمان كلامهم كثير لدرجة انك ما تعرف الحق من الباطل تعايش شنو الى بعلمونا ليهو نحن ما متعايشين من زمان والله ما قلنا لزول فارق وامشى كلهم سكان ومواطنيين البد دى عاملة زى لحم الراس من كل نوع ومن كل حنة، بس والله احسن بلد.

- مهدية: التعايش السلمى، معناه خلى الجنسيات دي اللي ربنا رماها في كسلا خليها تعيش وتتعايش السودان وسيع وكسلا لمامة وكفاية من زمان وهى لامة الجنسيات الكثيرة دى وكلهم يقولوا ان بلدهم كسلا وعمرها كسلا ما رفضت زول..

- خالة ذهبية: يا ريت يعرفوا قدرها وقيمتها

- مهدية بغيط: بالله عليك أنا وانتى نبيع خضار بشوية جنيهات وكومار حسابه في البنك بالملايين دا الغايظنى لكن العيشة يعيشوا معنا.. ما حاسداهم بس اتمنى اكون تاجرة كبيرة زيهم..

- الخالة ذهبية: يا بنتى الرزق دا من الله، ما ندخل فيهو ونحن لو عايزين نبقى تاجرات كبار كان بقينا، لكن تجارة الدقوة والطماطم ما قدرنا نطلقها - تضحك -

- مهدية: تشاركها الضحك وتعلق: والله كلامك صح، يوم فكرت اعمل بوتيك لأدوات التجميل جاء مورد البامية وقال لي عندي ليكي شوالين بامية برخص التراب، قمت دفعت عربون المحل للبامية..

- خالة ذهبية: وانا يا بنتى متوارثة المحل دا من أمي وامى ورثته من امها.. كنت اتمنى اتعلم ومشيت ايام الانجليز المدرسة وشجعونا وادونا الملابس والكراسات وامى وابوي كانوا موافقين اتعلم جاءت خالتي الله يرحمها قالت ليهم: لا تخلوها تدرس بكرة يا خدوها الانجليز ويشغلوها معاهم وتروح وتاني ما ترجع.. خافت أمي وافنعت ابوي وخرجوني من المدرسة..

- مهدية تبيع لاحد الزبائن وتساله سداد ما عليه ثم ترد على ذهبية: يعنى الانجليز يا خدوكى ليه بالعقل كدا عشان يعملوا بيكى شنو؟ والله الناس زمان كانوا مساكين يصدقوا كل شى..

- خالة ذهب بفرح: بناتي ما شاء الله في الدراسة ح يعوضوني..

- مهدية: أنا كمان مبسوفة أن اخواني الاثنين في الخرطوم في الجامعة واختي في الثانوية والولد الصغير في الابتدائية، رغم أن الحمل ثقيل لكن والله اعتبرهم أكبر رأسمال وفرحتي يوم يتخرجوا من الجامعة ادبح ثورين واعمل حفلة يسمع بيها القاصي والداني..

- خالة ذهبية: ما بتعملي ذكر ومدايح نبوية بس جارية للحفلة، شوقك للرقيص والهجيح ما كدى؟

- مهدية - تبتمس -: خلاص ولا تزعلي يوم نذبح ثور ونعمل حفلة واليوم الثاني نذبح ونعمل ذكر ومدايح وشى لله يا حسن ابو جلابية..

- آمادوا منذ أن رأى النبي (ص) تغير بعض الشيء واهتم بمظهره العام ، رؤية المصطفى صلى الله عليه وسلم بشاره ووعده بالخير ليس رؤية أي حد وعادة ياخذها الناس مأخذ الجد، تعاون معه كومار واجلسه على كرسي ومكتب ولم يعد عتالا فهو يجيد القراءة والكتابة حيث درس في (خلوة) شيخو محمد وكان تلميذا جيدا حفظ المصحف عن ظهر قلب وهو دون الخامسة عشر وبدأ يدرس الصغار من سن الخامسة وحتى العاشرة، لكن صحبته لعدد من الشباب الطائشين جعله يرتاد بيوت (المريسة) وهو شراب بلدي مسكر.. وأصبح يقضى كل نهاراته هناك في حالة غياب تام عن الوعي وعندما يضيق يستحي أن يعود إلى البيت برائحة المريسة التي تفوح من انفاسه خاصة وانه من عائلة متدينة ولها علاقات بالزاوية القادرية، فيضطر إلى النوم تحت أي شجرة نيم في بيت من بيوت المريسة وتأوي الزبائن الذين يريدون البقاء لليوم الثاني أو الثالث وهكذا، وآمادوا كان يرغم صاحبة البيت امونة على أن تجلس بجواره ليحكي لها عن احلامه وطموحاته وحبها لها، وانه كان سيتوب عن شرب الخمر لولا انها اعادته بصوتها الحنين ونظراتها الساحرة. كانت تتعمد ملامسته بحنية كلما مرت بجواره وترميه بكلمات يذوب بها آمادوا ويطلب كأسا آخر.. استمر آمادوا على هذا الحال إلى أن جاءه شقيقه ونصحه بل ضمن له عملا مع كومار الهندي كعتال أو حمال مقابل مرتب شهري وينام في الدكان يحرس البضاعة أي عمله (صبي في دكان) رغم أن آمادوا في الثلاثين من عمره لكن السكر اضاع له من العمر الكثير، رضى آمادوا بشرط إلا يمنعه أحد من (المريسة) في اوقات فراغه واجازاته فكان الاتفاق بينه وبين شقيقه.

- آمادوا وبعد رؤيته التي غيرت مجرى حياته لم يستغن عن المريسة وارتياذ بيت امونه بالذات التي زادت بحركاتها المثيرة، ربما لتأخذ مبالغ أكثر من آمادوا وربما لشيء آخر لكن آمادوا فاجأها ذات كأس انه يريد الزواج منها والارتباط بها إذا تركت عمل المريسة وتركت الحي الذي تسكنه بالكامل، لأن والده رجل محترم ومتدين لن يقبل أن يتزوج ابنه بامرأة تصنع الخمر أو تبيعه أو حتى تسكن في الحي المخمور قال لها ذلك وهو يؤكد: نحن من عائلة تعرف الله والخمر والميسر حرام، أي نعم أنا سكران لكن غصبا عني أنت السبب.. أنا اعرف أن الله سيعاقبني لأنني لم التزم بأوامره ونواهيه.. لكن لو اردت الزواج لابد أن اتزوج بامرأة تصلى وتصوم لا تعرف الخمر ولا عمرها شافته..

- ضحكت أمونة في استهزاء: ايوه يا ولى الله آمادوا هات من بركاتك..

- آمادوا يحاول اقناعها: الحياة حلوة يا أمونة نعيشها مع بعض بس وافقي على شروطي عشان اسرتي وعشان والدي بالذات..

- امونة وبعد أن سمعت هذه الشروط ردت وبكل وقاحة: ابوك نفسه لو شرب كأس واحد سيكون زيون دائم يا دودو.. واضافت: أنت عايزنى اترك عملي واعيش معاك بشوية الملاليم الى بتأخذها من الهندي كومان.. لا يا حبيبي شوف ليك واحدة تناسبك بتاعت صلاة وصوم..

- آمادوا - كمن صفع على وجهه-: كده يا أمونة أنا آخذ ملاليم؟ ما لها الملاليم تفتح بيت وتعيش اسرة، لكن المتعود على الحرام ما يقدر يسيبه..

- أمونة تمط شفتها السفلى وتقول: أنت جاي تعمل لي محاضرة للشيخ حسب الله هنا؟
- آمادوا: لا.. أنا ماشي وماجاي تاني، انتى ظالمة وما تعرفي الحب ولا تقدرى المشاعر والعواطف حياتك كلها بكم تبيعي وكم تكسبي وكيف تعملي مع الزبون حتى تاخدي كل فلوسه عمرك ما ح تبطلي، فقدت مكانتك لما رفضتى تتزوجى وتتركى العمل الحرام، بعت نفسك للشيطان وبعيتنى انا الى كنت ناوى استنتك واعيشك أحسن عيشة.
- أمونة: احلف أنك ح تبطل وتنسى الكاس؟
- آمادوا في تحد: انسى كل شيء حتى حبك (مضى وهو يترنج، ركب الباص وهو صامت يتجرع المرارة التي تلقاها من أمونة إلى أن وصل إلى دكان كومار، هناك ارتمى على شلالات الذرة التي رصها ليلة امس ونام..

يا زمان الوصل بسوق الخزار

- لم تكن سيدة على علم بإعجاب علي بها إلا عندما مر يوماً بدراجته الهوائية وهي تمشي لوحدها في زقاق حارتهم الضيق قبل صلاة العصر، همس في أذنها بكلام لذيذ ثم عض شفته السفلى وغمز بعينه اليمين ثم مضى.. سيدة التي تسكن حارة الهجانة تمايلت بقوامها الجميل، شعرت بدفع خاص يغمرها من حيث لا تدري، استنشقت هواء الزقاق لأول مرة بعدوبة ونداوة المكان، تباطأت في المشي إلى بيتهم فالزقاق خال إلا منها ومن علي الذي كان يلتفت إليها ويرمقها بنظرات كادت تخترق جوفها، ابطأ في قيادة دراجته الهوائية بل صار يتلوى بها وكأنه يومئ لها بأن تعالي فالوقت مناسب والمكان ملائم، خافت سيدة من العيون المتلصصة التي ترقبها في حارة يسمع فيها دبة النمل كما يقولون.. لذلك زادت في البطء حتى انتهت الحركة تارة بحجة إعادة لف جسدها بثوبها وتارة بالالتفات إلى الخلف وكأنها تراقب الطريق الذي تمت أن يكون خالياً وإلى الأبد، اليوم فقط لم تشعر بوحشة الزقاق في هذا المساء.

- أعاد علي اتجاه الدراجة الهوائية عائداً إلى سيدة التي ثققلت وهي تخطو خطواتها في دلال.. انتابها بعض الخوف لكنه تجرأ ووقف الدراجة امامها احاطها بالدراجة وبجسده العريض تقاربت انفاسهما كادت تختلط، حاولت أن تبتعد في ارتباك واضح، حركت شفتيها في رعشة طالبة منه أن يمضي ويتركها قد يأتي أحد من الحارة ويراهما، خاطبها فيما يشبه الامر: سوف انتظرك غدا في

المحل تعالى لا تتأخري عشرة صباحا.. ها هرولت ولم تدع لنفسها فرصة النظر اليه ثانية، اسرعت قدر الامكان لتبعد وكأنها تخبي نفسها خوفا من خطيئة كبرى، شعور مزعج أن تريد ولا تريد في نفس الوقت أن تستمتع باللحظة الجميلة وان تقمع شعورها حتى لا يراها أحد متلبسة باثم... وصلت إلى بيتهم، وقفت امام الباب وهنا اخذت تتبعه بنظراتها المشتاقة إلى شيء ما.. حلفت بعيدا، لم تكن تتوقع منه هذا السلوك هي بالذات وعلي الذي كانت تتمنى أن يكلمها كلمة واحدة ها هو يتقرب اليها ويوح لها بمشاعره انه من اسرة ميسورة.. ها هو بشحمه ولحمه يعجب بها ويواعدها، يغازلها بشكل صحنى فيها انوثتها، جعلها تنتفض من دواخلها وتستيقظ كل حواسها وعقلها، سلمت الامر لقلبها.. تابعته بنظراتها إلى أن اختفى في زقاق آخر تمننت لو اختفت معه إلى حيث تطير بها حواسها.. خاطبتها جارتهم أم الخير: مالك يا سيدة أنت جاية ولا ماشة مكان واقفة كدى زي السنفور؟

- سيدة - بادرت بالسؤال: أنت يا أم الخير لما تزوجت عوض كان بينكم قصة حب؟

- ام الخير - تضحك باندهاش -: قصة حب يا بت انتى عيانة؟ نحن تزوجنا عشان عوض ود خالي وانا بت عمه ولازم يغطى ماعونه لا لحقنا نعمل قصة حب ولا لحقنا نعمل أي حاجة وبعدين خلفنا ولد وبعده بنت - تضحك - لهسه ما عشنا الحب لكن نشوفها في المسلسلات.. وتسألها في استغراب: أنت الليلة مالك يا سيدة عندك حمى ولا شنو؟

- سيدة - تحاول تتهرب - ولا حاجة بس حبيت اعرف
الحب قبل الزواج أحسن ولا بعد الزواج، يعنى من باب الفضول
بس..

- أم الخير ارتاحت للكلام أو فتح شهيتها - ليه ما يكون قبل
واثناء الزواج وبعد الزواج وعلى طول الناس تحب بعضها.. دي
مشاعر انسانية يا سيدة اوعى تزوجي زينا اداء واجب ومجاملة
وجبر خاطر ولليوم نحن نجبر خواطر الناس الكبار والاهل.
- سيدة - وكأنها تبحث عن معلومة هامة -: يعنى الزواج من
الأهل مش تمام؟

- ام الخير: لا مش القصد أنا قصدي اختاري وهو يختارك
وعيشوا الحب، الدنيا قصيرة ومن غير حب تكون أقصر، الحب دا
يخلى الدنيا لونها وردى يا بت ما شايفة المسلسلات وهو تمثيل
يخليكى تعيشى الدور - تضحك -

- سيدة - تنشد الابيات وهي تتمايل - جادك الغيث إذا
الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس لم يكن وصلك إلا حلما في
الكرى أو خلسة المختلس.

- ام الخير: يا بت الحاصل شنو وهي تلتفت يمينا ويسارا
الجاب كلام فيروز في غرب القاش شنو؟ أنت شكلك حبيتي واحد
مجنون لما خرجك من طورك.. اوعى يا سيدة تفقدي عقلك بعض
الشباب خداعين يفرشوا للبنات الكلام الحلو لما يتمكن منها وانت
ما ناقصة مشاكل.. كلام وكلمتك..

- سيدة - تطمئننها - ما تخافي على اتعلمت وصحصحت..
بس كيف عرفتي اني وقعت؟

- ام الخير - تتجه صوب الشارع وتتقدم خطوات - قائلة:
من حركاتك وكلامك، انتي عايزة ليكي قعدة خاصة بجيالك بعدين،
أنا ماشة اشوف لي لوبيا وشوية عيش ذرة اسوى بليلة قالوا الليلة
خسوف القمر ربنا يعدى الليلة على خير ويكتب لنا السلامة من
كل شر.

- سيدة وهي هائمة بعد أن تركتها أم الخير وذهبت للبحث
عن اللوبيا: خسوف القمر وبكرة كسوف الشمس لأنها خجلانة، ما
منحتني الحب إلا متأخر، وبعد بكرة القاش يجي في غير مواعده
عشان يبارك حبنا، يجي رايق وصافي يقبل في الأرض لما يصل كسلا
وهناك يسجد ويحمد الله معايا، وتوتيل الجبل العملاق يزحف
من مكانة ويشارك فرحنا.. الله كم أنا سعيدة احساس ي بطير
واسافر مع السحاب.. مش عايزة ادخل البيت عايزة مكان واسع
انطلق فيه، عايزة اضحك، عايزة أبكي وكمان اغنى رغم أن صوتي
مش حلو لكن شاعرة انه يطرب، عايزة اقول للناس كله: على طلع
راجل وكلمني، عبرني وقال كلام حلو وقال لي أنت جميلة وانا مش
مصدق أي كلمة قيلت في حقك أنت انقى انسانة.. الله سمعتي الى
راحت وكرامتي اللي اتمرمت في التراب وسمعة أهلى اليوم بس
بدأت ترجع.. تطلق تنهيدة ودمعات مالحات، حارات تتسابق
وتسقط من عينيها في أسى وتواصل: كنت مع سمير في سيارته
التاكسي في ضفاف القاش بالناحية الشرقية حتى لا يرانا أحد، كنت
احبه بعمق وكان يمثل على الحب يغمرني بالهدايا والكلام الجميل
الذي لم اكن اعرف اوله من آخره سوى أنني كنت استمتع بذلك
الكلام، حتى ارتميت في شبابه، كنت ابحت عن رجل يكون لي
الاب والالاخ والزوج بعد أن توفي أبي واغترب أخي وبقينا أنا وأمي

وحيدتان نعيش معاناة الفقر والعدم فأخي كان يرسل لنا بعض الريالات السعودية بعد فترة وأخرى نخصصها للديون التي تراكمت.. والدي لم يكن يمتلك شيء سوى حصان وعربة كارو كان يعمل بها في نقل الأشياء من وإلى السوق، وبعد وفاته مات حصانه بعد ثلاثة أيام حزنا عليه، ظلت العربة العتيقة وسط الحوش.. سمير كان يغمرني بهدايا ثمينة فهو من حي الختمية حيث كنا نزور أنا وهو الضريح ونتبرك به، كنت في نفسي أسأل حسن أبو جلابية أن يجمعنا أنا وسمير في بيت واحد ويكون لي الزوج الصالح وأكون له الزوجة الطائعة.. كان يشتري العلاج لأمي وكان يطلب مني أن أخرج معاً لنقضي ساعات طويلة معاً فيما تنتظر أُمِّي عودتي بفارق الصبر بعد أن تكون قد قضت من الوقت مع جاراتها اللاتي دائماً ما يسألن عن أسباب غيابي لساعات خارج البيت..

العودة..

وجدت الباب مفتوحا فانزلت نحو الشارع بعد أن صلت صلاة الفجر، سبحت قليلا ورفعت سجادة الحصر وعلقتها فوق المسمار لتصنع بعد دقائق شكلا أسطوانيا على الجدار الطيني، اتجهت بحذر صوب الباب الذي تركه حفيدها مفتوحا، ولم يقم بإغلاقه من الخارج كما كان يفعل كل صباح وهو ذاهب إلى المسجد لقد نسي.

مكية اتجهت غربا صوب النهر، فهي تعرف الطريق التي تؤدي إلى نهر القاش، هي تدرك جيدا الطريق إلى هذا النهر رغم ذاكرتها الغائبة. اجتازت الأزقة النائمة إلا من نحنحات المصلين الذاهبين إلى المساجد لفت نصف وجهها بثوبها، فقط عيناها تبدوان غائرتين وقويتين وجزء من جبهتها يبدو في الضوء الخافت كمساحة واسعة عبث بها الزمان وانهزم.. الجبال مازالت تحجب الشمس ربما انهما يتفاوضان على الشروق ومكية قصدت النهر دون خوف نسيت ذكرياتها المؤلمة، مخاوفها من النهر وغدره، مكية تمشي كغزالة في غابة لا تعبأ بأصوات النساء والأطفال التي بدأت تخرج من البيوت بلا خوف تركت المربع السكني الاول خلفها ثم الثاني، كانت مجموعة من الكلاب بدأت تنبح وتلتهم نحوها، لم تعرها اهتماما وهي تمشي وراءها دون الاقتراب منها تتعالى اصواتها لكنها لا تملك الشجاعة الكافية لمهاجمتها، ربما تكون من الحارة وامرأة تمشي بهذه الثقة لا ينبغي إلا أن تكون من غرب القاش فالطمأنينة توجي بذلك، رافقها عدد من الكلاب بنباحهم فيما تراجع معظمهم

إلى أن وصلت المربع الرابع وكأنهم يسلمونها لحراس آخرين في المربع التالي. قالت في نفسها المرء يعرف من وجهه أنه فلان، أفضل شيء أعطى وجهي حتى لا يتعرف عليّ أحد ويعيدوني إلى البيت، وصدقت المرأة البجاوية التي قالت المرء يعرف من وجهه لكن كل المؤخرات تتشابه.

دخان يتسلل من بين البيوت ها هم بدأوا يشعلون النيران والحطب لإعداد الشاي وتفوير الحليب، مكية تقول لهم: ناموا يا أهل غرب القاش قليلا واتركوا الشاي والحليب هذه العادة القديمة التي تقومون بها بلا وعي واخرجوا إلى شوارعكم لتروا شروق الشمس في أوله كيف هو ساحر في غرب القاش حيث تولد الشمس من الجبل، رويدا رويدا تنسلخ الشمس عن الجبل وكلما بعدت عنه زادت حرارتها وزاد توهجها إلى أن تتعادم عليه هنا يكون النهار حارا والجبل في اوج لمعانه ويبدو كمن فقد ظله ينظر إلى الشمس في تودد ويدعوها للغروب.

رفعت مكية رأسها لترى مقبرة (ابو دقن) وتذكرت كل الموتى الاعزاء الذين رحلوا عنها، لم تكن لديها رغبة في البكاء، تذكرت حواشات ورأت كوخه المكون من قطع القماش والكراتين، هناك في طرف المقبرة كان يروى شجرة زرعها حديثا رآها من بعيد فهي بدأت وبلا مقدمات تتعملق عنقها الطويل تجاوز الحد كزرافة ورجليها زادت طولاً ويديها بل كل جسدها تمدد طولاً وقليلاً في العرض أنها ترى ما بعد البيوت وما بداخلها كلما مشت زاد طولها، قد تتحول إلى مخلوق خرافي، حواشات رأى وجهها من بعيد ترك ما في يديه وجاء اليها وهو بنفس الهيئة والشكل، شعره الرمادي الملفوف على بعضه ولحيته التي وصلت صدره بعد أن اخذت في

طريقها طرفي الشارب، ارجله المربطة بقطع القماش و(صرر)
النقود وبعض قطع الحديد الصغيرة انه كائن غريب مجنون أو
نصف مجنون لكنه يعرف انه حواشات ويعرف أهل المنطقة
جميعا سألها: مالك يا خالة مكية أين أنت ذاهبة؟ لم ترد عليه
عرض عليها بعضا من المال أن كانت محتاجة.. لم ترد ابتسمت في
وجهه ابتسامة رضا وبادلها من تحت شاربه الكث ابتسامة من
قلب صاف تركها وعاد وهو يكلم نفسه ترى أين ذاهبة؟ حواشات
صار نصير الموتى بعد أن أهمله الأحياء، هو وحده يعرف أن الدنيا
دار فناء ولا ينبغي أن نتمسك بها كثيرا، هو وحده من عرف أن
الاموات مرتاحين من نكد الدنيا ومن ظلم ذويهم والآخرين، يعرف
جفاء الأحياء لموتاهم، حواشات يحدث الموتى بما يحدث في
غرب القاش وكأنه يبث لهم نشرة الأخبار الأكثر مصداقية من نشرة
أخبار الراديو، يشعر وهو متأكد أن الموتى يسمعون أو يتوهم
كذلك لذلك لا يتأخر عنهم يحكي لهم مأساته وكيف أنه سئم
الحياة وتمنى مغادرة دنياهم حكاية طويلة لكنه اليوم سيحدثهم
عن الخالة مكية وما رآه.

مازالت مكية تمشى بشيء من الثقة البالغة، وقفت امام منزل
عمها، عرفتة من كل البيوت رغم ما ناله من الخراب فما زال سوره
الطيني صامدا كأنه خارج لتوه من مقبرة قاوم فيها الموت وانتصر،
البيت يتوسط البيوت المشيدة اسوارها من القصب، ذاكرة مكية
تنقي في هذه اللحظة بيت عمها وفي غرابة من الذاكرة التي توقفت
عند تاريخ بعينة وفترة محددة ذكرت مكية منزل عمها عندما
جاءت الفنانة عائشة الفلاتية إلى كسلا بدعوة من عمها عباس
التاجر المعروف ابن عم والدها، فقد قرر هو وبعض اصدقائه من

التجار وكبار المزارعين في كسلا قرروا أن يدعوا الفنانة المعروفة عائشة الفلاتية لإحياء أمسيات طربية غنائية خاصة بهم.. فعلا جاءت الفلاتية وانزلت بالفندق الوحيد المرموق في كسلا وكانت تقضي النهار في منزل العم عباس مع النساء وكانت بعض النسوة المتعلمات والثريات يأتين اليها ويناقشنها في الفن والغناء ومجتمع الفن في الخرطوم، في منزل العم عباس (عم مكية شقيق والدها) هناك انواع من أشجار الفاكهة التي استورد شتلاتها من الخارج وهو بيت طيني طلي باللون الأبيض مما اعطاه طابعا مميزا، وداخله البستان الكبير الذي حف بأشجار النخيل وزين بأشجار البرتقال والجوافة والليمون وراكوبة العنب بالإضافة إلى أشجار الفل والورود والرياحين.. في هذا المكان الجميل كانت عائشة الفلاتية تغني بدون مايكرفون فقط يصحبها عازف العود والايقاع، كانت مكية وصويحاتها مازلن في سن الصبا وغير متزوجات، سمعن بتلك الجلسات الطربية الخاصة ذهبن إلى جوار البيت وتحت شجرة النيم اخذن يسترقن السمع وقد رحب أحدهم بالفنانة قائلا: (كسلا نورت يا ست الكل وازدانت بوجودك.. يلا سمعينا يا بلال تزورنى مرة.. اطربينا).. مكية وصويحاتها رقصن تحت الشجرة وفي اضاءة خافتة كانت ترمى بنفسها من ضوء (الرتينة) في حوش العم عباس استمتعن بالغناء وبهمساتهن الناعمة كانت تعلق كل واحدة على الأخرى بأن رقصتها كانت أجمل وان الاغنية خفيفة مساعدة واخرى تعلق بأنها تحب الفلاتية من زمان وتحرص على برنامج ما يطلبه المستمعون لعل وعسى تأتى اغنية من اغانيها وثالثة تقول وبحزن خفيف ليه العم عباس ما يخلي النسوان يدخلوا ويحضروا الجلسة.. تقرصها رابعة وتقول بخبث:

يا بت دي قعدة افهمي.. فيها وفيها.. ويضحكن بأصوات منخفضة ويختصرن الضحكات فالأغنية التالية قد بدأت.. مضى الليل وهنا مع الطرب الاصيل ونسيت كل واحدة منهن نفسها واعتقدت اسرهن انهن مع بعض في احدى البيوت كعادتهن يجتمعن إلى منتصف الليل في ونسات طويلة.. تذكرت مكية تلك الأيام الجميلة التي كانت تجمعها مع صديقاتها اللاتي انشغلن كثيرا بعد الزواج فمنهم من كان نصيبها جيدا وسافرت إلى مدينة أخرى ومنهن من انتقلت من بيتهم إلى بيت جارهم الذي صار زوجها فقط هي ربيعة التي تزوجت برجل وسافر بها إلى المملكة العربية السعودية ومكثت أربعين عاما واخذت التابعة أي ما يشبه المواطنة ويوم عادت لغرب القاش عادت بلسان سعودي غريب لكنها وللغربة لم تنس لغة الهوسا التي تعلمتها في صغرها ففضلت التحدث إلى الناس بهذه اللغة وبها عرفوا انها ربيعة بنت غرب القاش التي ما تغيرت ولا لبست جلدا آخر..

مكية ما زالت بعنقها الطويل وقامتها التي تجاوزت البيوت وعيناها اللتان اتسعتا وصارتا ملء الفضاء المهيمن فوق البيوت ما زالت تقف امام بيت عمها لعله يخرج الان تذكرت انه مات منذ سنوات واقيم له العزاء في نفس البيت وفي نفس مكان الجلسة الطربية (الله يرحمه) كانت من حسنات عمها انه كلما عاد من المسجد بعد صلاة المغرب يأتي بكيس مليء بحلوى ملونة بشكل دائري صغير كان يوزعها على الأطفال وكيف انها كانت تهدد الأطفال بأنها لن تسمح لهم بالحلوى وكيف انها كانت تأخذ نصيب الاسد من الحلوى، لأنها كانت تأتي مع أكثر من مجموعة وجدها لا يقوى على التركيز في كل الوجوه.. تذكرت هذا الشريط

الجميل وابتسمت من تحت الثوب الذي يغطي نصف وجهها
واخذت تمشي صوب النهر، هناك نظرت إلى البيوت التي غطت
أبوابها باللون الابيض وكتب على جدرانها حج مبرور وسعي
مشكور. اذن هو موسم الحج الذي انتهى لتوه فقادت ذاكرتها إلى
ايام توديع الحجيج عندما كانت تشعل حجة التومة بصوتها
الحنين المجالس النسوية بمدح الرسول الكريم والاداء الجماعي
الرهيب ففي حضرة الرسول الاعظم تزول كل الاحقاد والضغائن
ويعيش الناس أياما من السمو الروحي والعظمة بدري خاتم الانبياء
فاذا كان قريبا سيغادر إلى الحج هذا يعني أنه سيكون في معية
المصطفى (ص) فليبلغه شوقنا ومدى حبنا له واننا سوف نزوره
فقط يسهل الله ويأذن.. كم هم محبين للرسول هولا الناس،
يبكون في مجلس ذكره ويشعرون بالأسى أنهم لم يكتب لهم الفوز
بالزيارة.. أنهم يسمون أربعة اخوة باسم محمد حبا فيه فيميزون
بأول ومحمد ثاني ومحمد ثالث.. أو محمد الكبير ومحمد الصغير
هذا عن الهوسا أما السودانيون فيسمون محمد ومزمل ومدثر
ومصطفى وطه و... الخ وكلها اسماء للرسول محمد.. مكية كانت
من هواة المدائح وكانت كورس مع حجة التومة، وكانت تتمنى
الحج وكم هي نادمة الان لأنها لم تذهب لزيارة النبي فدخلت في
موجة من البكاء الهستيري لكنها خافت أن يستيقظ الناس من
صوتها ويلتموا حولها وتكون مشكلة وقضية... خاطبها أحدهم وهو
ينظر اليها باستغراب من حجمها ومن شكلها وقال لها في شجاعة:
السلام عليكم... انبته مكية وردت وهي تكفف دمعها: عليكم
السلام.. الشمس بدأت تظهر رويدا رويدا والضوء يزيح الظلام في
هدوء ومكية تمشي وتعملق، كلما تقدمت صوب النهر وتجاوزت

مربعاً سكنياً زاد حجمها، اتسعت عيناها، طالت الأذرع والأرجل، تتحول تدريجياً إلى كائن خرافي الحجم، اسطوري، كان الانبياء مميزين بالطول فقد زادهم الله بسطة في الطول كما ينبغي أن تكون الشخصيات التي تحمل رسالات عظيمة والتي وقع عليها عبء التغيير، فما بال مكية؟ أهى واحدة من هؤلاء؟ انها تمشي ببطء شديد، تلتفت بعنقها الطويل نصف لفطة وكأنها قاطرة أو طائر لترى ثانية نحو المقبرة، هذه المقبرة التي دفن فيها معظم أهلها فهي موطن الغالين، ترى حواشات بشحمه ولحمه، حواشات ابن غرب القاش الذي فقد عقله وهو يؤكد لهم يومياً أنه لم يفقد شيئاً إلا عقولهم! مازال منشغلاً بالموتى ربما كان يقوم بواجبه اليومي في تفقد مراقدهم ويصبح عليهم، يخاطبهم: اعلم أن اهاليكم لا يزورونكم كما يزورون قبور من يسمونهم اولياء الله الصالحين بحجة التبرك مع انكم كل الخير والبركة، واعلم أنكم تتمنون زيارتهم حتى تتباهوا بهم لكنهم لا يفعلون، أعلم أنكم تسامحونهم كما تسامحون كل من ظلمكم، لكنهم لا يعلمون، يضيف حواشات: أنا لكم جميعاً إلى أن أرقد بجواركم لا تهتموا بهؤلاء الذين يجهلون الحياة الأخرى ولا يعيشون حياتهم الاولى!

- حواشات أصبحت حركته أكثر بطئاً بسبب قطع القماش التي يحملها أو بالأصح يلبسها وتلبسه، بالإضافة إلى قطع النقود والحديد التي يعقدها ويصرها جيداً في تلك القطع القماشية، تراكمت على حواشات أشياء وأشياء من علب فارغة إلى اسمال مهترئة وغيرها، ربما لهذا السبب سمى (حواشات) بهذا الاسم فلا أحد يعرف اسمه الحقيقي إلا مكية لذلك عندما نادته باسمه الحقيقي اندهش وابتسم بل ابتسم كل شيء حوله، سألته: كيف

حالمهم؟ يرد حواشات بصوت فرح ومستغرب في نفس الوقت من حجم مكية الذي تجاوز المعقول، قال: كلهم بخير ارواحهم عند الملك المقتدر يبلغوك سلامهم ووالدتك بالذات.. مكية وقد نكست رأسها الكبير قائلة: قل لأمي اللقاء قريب. لم تركز كثيرا على المقبرة كمن يتحاشى صور الموتى.. سمعت صوتا مخنوقا ينادي من وسط المقبرة ولا تراه، عرفت الصوت ولكن أين هي؟ انها انيسة بصوتها المميز الذي لا يكاد يخرج كلمة واحدة سليمة ولكن أين هي؟ انيسة تعاتبها وترسل من خلالها رسالة قائلة: أنا عاتبة على أهل غرب القاش كلما مات أحد من اسرتنا قالوا عنه (تيراب البنية أو بعاتي) أي يبعث بعد الموت ويأتي في اليوم التالي..! يا مكية قولي لهم لا أحد يعود بعد الموت إنه الوهم الذي يعيش في عقولهم، إذا كانت هناك عودة كنت سأعود أنا قولي لهم البعث يوم القيامة لا يستعجلن.. أن ارواحنا قد تزور الأعداء والأحبة الذين يذكروننا بالخير قولي لهم لا تؤذونا فنحن بشر مثلكم.. مكية وقد تألمت من كلام انيسة واومأت لها بذلك، حولت نظرها بعيدا في الاتجاه الآخر بعد أن اغمضت عينيها.

- خلف السواقي هناك منطقة صحراوية خالية إلا من بعض أشجار النيم حيث ترقد خالة مكية وزوجها وبناتها الثلاثة قبروا في مساكنهم، كانت مكية تتجول ببصرها هناك دفنت الأسرة كاملة ومعها أربعة أسر أخرى جيرانهم دفنوا جميعا في نفس المكان بعد أن اصابتهم قذيفة ايام حرب الطليان واستشهدوا بل تقطعوا اشلاء في مذبحة شنيعة وما كان أمام أهل الحي إلا دفنهم جميعا في حفرة واحدة، مكية وهي تخاطبهم وقد غطى وجهها الحزن: الناس الطيبون يموتون ويدفنون معا إنهم يدفعون ثمن حماقات الكبار

وطيشهم وأطماعهم، البسطاء وقود الحرب الذي لا يعبأ به أحد وإذا ما صار رمادا مشوا عليه، تواصل موال حزنها على خالتها ومن معها وهي تقف إجلالا وتنكس رأسها الضخم لهؤلاء الاعزاء: ترى من يواسينا نحن اهالي الشهداء والمفقودين والجرحى جراء الحروب والصراعات الهبلة وعبط الاستحواذ على الثروة وجنون البقاء في السلطة؟ يا خالتي إذا كنت قد عجزت عن أن أكون مكية التي اريد مكية التي تحب وتتزوج ممن احبته وتعيش كما تريد لا كما يريد الآخرون.. لم أستطع.. لم أستطع.. فكيف سأثأر لك ومتى؟ عندما يكون العجز ساكنا في دواخلنا يصعب الكلام عن أي استطاعة فلنكن جبنا وحاقدين في نفس الوقت هل ولدنا لنكون حاقدين؟ هل ولدنا لنكون عددا يضاف إلى الزحمة؟ هل نرضى بسلب حرياتنا ليقال أنا طائعون؟ اشعر يا خالتي بالعجز وانا اراكم نائمين ضد رغباتكم، اشعر بالبؤس وأنتم تدفعون ثمن حروبهم من يعتذر لكم من يأسف؟ تستحقون ضريحا أجمل ولافتة يكتب عليها اسماءكم، تاريخكم، تستحقون قبرا من حجار الكرامة والعزة، يكتب عليه (من حقنا أن نعيش كما نريد ونموت بهدوء)..

- ادارت مكية رأسها نحو الشمال فتلمح صورة ابن اختها الدكتور صالح غير واضح التقاسيم وكأنها بالأبيض والاسود، فصالح ترك السودان وهاجر في بداية الثمانينيات، بعث لدراسة الطب في بريطانيا، وعندما أنهى تعليمه وتخصص جلس بلندن يعالج المرضى في أحد المستشفيات المشهورة، بدا وجهه بشكل اوضح، ممتلئ وناعم لكن بعض قسمات الغربة والشوق ظلت بادية عليه، خاطبته مكية وهي لائمة: يا ولدي هكذا تركتنا وتركت بلدك وأهلك وهم بحاجة؟ هم المرضى منذ آلاف السنين وحتى

اليوم، مرضى بكل انواع المرض، هم أكثر احتياجا من الانجليز، وطنك وناسك واسرتك كلهم يحتاجونك، أنت وأمثالك الذين بعثناهم للعلم وصرفنا دم القلب من أجل عودتهم كفاءات ولكن ما عادوا! بدونكم نتراجع للخلف كثيرا، تضيف: الناس الذين حلموا بعودتكم ماتوا نعم ماتوا موت ربنا وبعضهم ماتوا من اليأس.. فيا كبدي أما أن الاوان؟ سوف أدعو لك وربما ستعود ولن تجدني سأرجل قريبا..

- يعترضها ألم دفين فتغالب نفسها وتدير وجهها باتجاه آخر أما جسدها فهو في اتجاه السير إلى الأمام يبدو لبصرها مزارع (تكروفي) التي كانت تلعب وتلهو فيها هي وصويحباتها عندما كانوا صغارا أشجار البطيخ، الموز، اليقطين، النخيل يحفها كجنة تحتضن كل ما لذ وطاب، كل تلك المزروعات دارت نحو مكية كأنها تقلد نبات عباد الشمس أو كأنها تحييها أو تبادلها السلام، إنها وفية لمن كان يرعاها، يبادلها الحب، يمسح على أوراقها الصغيرة حتى شجيرات (البرسيم) الغضة ابتسمت وهي تحيي مكية، هذه المزارع التي كان جدها وعمها يزرعونها لم تكن سوى أرض بور استصلحها اجدادها وزرعوها، فهم فلاحين ابا عن جد اخلصوا للأرض كانوا ينقلون ثمارها ومحاصيلها بالحمير والجمال قبل أن تعرف السيارات الكبيرة الطريق إلى هنا.. وما فاض من الثمار كانوا يوزعونها على الجيران، كان ذلك أيام الرخا كما تقول مكية.. لم يكن لأهل مكية أوراقا تثبت أنهم ملاك هذه الأرض فمنذ مئة عام وهم في هذه الأرض إلى أن جاءت حكومة التنظيم ووجهت بأخذ الأرض منهم لأنها من ممتلكات الدولة! أين كانت الدولة عندما كنا نزرعها ونسقىها ونعمرها؟ ها هي الان تقسم وتعطي لتجار وسماسرة من

غير ابناء المدينة! الظلم أنواع هنا، الزرع والورود وثمار الأرض
حيث مكية وبادلتها الود والاشتياق، أما هي فقد أشاحت بوجهها
حتى لا تسقط دموعها على ماضي تولى، كانت في صغرها تسهم في
الفلاحة وغرس الشتلات وتنظيف الأحواض ووضع السماد كانت
إلى جانب أسرتها تعمل وتلعب إلى أن مات والدها ومرض عمها
بعد أن صودرت الأرض منهم ولم يعوضوا.

- مكية مازالت تخطو نحو النهر وتتعملق والشمس تأخرت
ولم تظهر بعد وهي التي تلسعهم كل يوم ها هي تتأني ما لها اليوم؟
مازالت خلف الجبل والجبل صامت والمدينة لا صوت فيها إلا
صوت هدير نهر القاش وخوض أرجل مكية في المياه الجارية، لقد
جاء منذ ايام مع الخريف وهو قوي في جريانه كأنه في مهمة
خاصة، ترى مكية ومن على البعد مدنا كأسمرا ومصوع واديس
ابابا، تسرح بلا تعليق وتسبح في خيالات على مد الأفق اللامحدود،
إنها تتقدم صوب النهر ترى هل ستتجراً وتواصل؟ هل ستغامر أم
انها ستعود ادراجها؟ لقد طغى حجمها وطولها على الأسوار
والمباني قد تكون أقل من جبل توتيل بقليل أو قل نصفه.. ستكون
مشكلة عودة مكية إلى بيتها، كيف أي بيت يستوعبها وهي بهذا
الحجم؟ المرأة التي تعمقلت المرأة المعجزة المرأة القادمة من
السما، الكائن الغريب و....الخ من الكلام الذي سيقال.

- تواصل سيرها ولا تلتفت، تمضى وهي فارجة ذراعيها التي
غطت مساحة واسعة وقد أسرع، يا للهول إنها تهذل، إنها تسرع،
هدير الماء كالפורان لا أحد في النهر إلا هؤلاء الشباب المغامرين
الذين يقفزون من أعلى الكبرى القديم إلى وسط النهر ثم يعودون
بالحطب وجذوع الأشجار الكبيرة، هؤلاء الشباب يستعرضون

مهاراتهم في السباحة وفي تحدي النهر لكن ليس في وقت فورانه، مكية تتقدم نحو الضفة الأخرى، تنغمس أقدامها بسهولة إلى أن تصل إلى العمق الطيني وتمضي، تتسع الرؤية عنقها يطول كزرافة انفها كماسورة طويلة، تتجاوز الشاطئ فتدخل إلى النهر، تمشي حتى تبلغ وسط النهر، الماء بعنفوانه لا يصل إلى صدرها بل إلى ركبتيها وهي تنفرد وتتملق، تمشي، تمشي، مشدودة نحو القاع، ليس في ذاكرتها في هذه اللحظة أيا من ملفات الخوف التي كانت تسيطر عليها كملف والدها، زوجها الفوراوى، ملف النهر، ذاكرتها تستدعي ما تريد وبرباطة جأش تمضي وترمي بيديها كل مخلفات النهر خارجا، الشباب المغامرون مندهشون، خائفون، لم ينزلوا ثانية إلى النهر انهم وبأجسادهم المفتلة القوية يتابعون مكية التي يعرفونها جيدا انها الآن كائن غريب شكل أسطوري، حادثة لم تحدث من قبل، إنهم يقفون فوق الكبرى القديم وهي تمشي في حركة متوسطة السرعة تحس بحبيبات الرمل اسفل النهر تداعبها، تنجرف وتعود هذه الرمال تعرف أرجل مكية وكل أقدام خطت فوقها، أهل غرب القاش الذين يقطعون حوض القاش ذهابا وإيابا في شهور غيابه قاصدين السوق لبيعوا منتجاتهم واشياءهم المختلفة والتي غالبا ما يحملونها فوق رؤوسهم وعلى اكتافهم ثم يعودون في عز الهجير ودرجات الحرارة لا تطاق، لكنهم تعودوا فالرمال تداعب الأرجل التي تألفها.

- مكية مازالت تمشي، تشاق إلى رؤية المدينة بأكملها، لقد توسعت كسلا كثيرا فمكية لم تخرج من بيتها منذ سنوات أي منذ أن أصيبت بفقدان الذاكرة وإن خرجت ففي إطار الحي الصغير، كسلا رائعة في فصل القلق أي فصل الخريف والنهر امتلاء واخذ

يلثم أطراف الحوض، دفقات منه تتجراً وتخرج إلى السواقي القريبة من النهر.

- مكية تتجه صوب الطرف الآخر للشاطئ، الماء بدأ يصفو بعد عكرانه إنه ينظف نفسه بنفسه، ترسو شواثبه، تنزوي، تنزاح عن السطح وتمضي مكية ومعها حلم اجتياح النهر هي التي تجتاح النهر في هذا اليوم انها مفارقة عجيبة، هي التي تتغلب على أهواله وأمواجه الهائجة، الشباب ولأول مرة يرون النهر منهزماً! اذن هو قابل للانكسار هو يخاف ايضاً، النهر الذي يلفهم وهم عتاة الشباب وأقواهم على الإطلاق في كسلا بموجة يفقدون توازنهم، ما يشعرون إلا وهم بعيدون عن الكبرى فيستجمعون قواهم وسيبحون ضد التيار ويخرجون منتصرين بعد معركة قوية غالباً ما يكون النهر منتصراً بتخويف الجميع انه لا يعتق إلا الاقوياء، لكنه اليوم وأمام هذا العملاق المتحرك لا حول له ولا قوة، الجبروت والتحدي يقهره انها مكية التي ولدت من جديد، البعض راهن على أن النهر سوف يتحداها ويبتلعها فهو لا يرحم لقد اودى بحياة كثيرين.

- مكية تلتفت صوب الشمال وبريق من عينيها يسبق إلى المكان وترى من على البعد ذهبة ومهدية وام حقين ومريومة وستهم العديلة...الخ كل النساء العاملات في السوق، تحن مكية لأيام خلت كانت تذهب اليهم لتشتري بعض احتياجاتها و(تتونس) معهم عن الأحوال الخاصة والعامة، ترى الرجال الذين شاخوا وهزلت ابدانهم وهم بائعين في السوق، ظلوا صامدين كمحمد ود العربي بائع الازيار وكل انواع الفخار واسماعيل بائع (الخرز والسكسك) ونور الدين صاحب زوجها الفوراوي والتاج بائع

السّمك في مدينة تعشق أكل اللحوم، ابصارهم جميعا شاخصة صوب الشعاع القادم من بعيد لا أحد يعلم مصدره، الملامح كأنها معروفة لكن ليس بهذا الحجم اذن ليس انسانا هذا! قد يكون كائننا فضائيا أحدهم علق وهو خائف: إنه الأعور الدجال والثاني ينفي ويدعي علمه بالأمر: اعور مين دي حورية النهر يا جماعة تظهر وتختفي أنا اعرفها وشفقتها من قبل.. أحدهم علق مضطربا وهو يرتجف: يا جماعة اذكروا الله خلوا الكلام الكثير انها أهوال يوم القيامة لا إله إلا الله لا إله إلا الله لا إله إلا الله..

- صوت من بعيد يناديهم فيما مكية تركّز بريق عينها صوبهم: يا ناس اقرأوا القرآن يبدو أننا امام كارثة لا يعلم بها إلا الله لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم واحداهن تبكي: يا حليلنا من الدنيا خلاص نهايتنا ونهايتها.. وتذكر قائلة: عاد الليلة يا حسن ابو جلابية الحقنا، ونجينا من الهول... وتواصل بكائها..

- حالة من الهرج والمرج والخوف تسود السوق بل المنطقة بأسرها والشمس تلقي بضوئها على وجه مكية لتزيده لمعانا، شكل غريب ينتفخ ويعظم، لا صوت إلا صوت أقدامها وهي تزيح الماء وتحديث فجوات واسعة تظهر من بعيد ولا كلمة تصدر الآن عن مكية وهي وسط النهر وقد استدارت صوب سوق النسوان الذي لا يبعد كثيرا عن سوق الخضار وخف الضوء المنبعث قليلا عن السوق فيما انارت سوق النسوان بضوئها غير المألوف لتبدو حجة زهرة واختها الريلة والبنت شوق وغزال بائعة حطب الطلح والشاف، وام الحسن بائعة (الويكة والكسرة) وطببة صاحبة محل الكريّمات ادخلت على السوق بضاعة جديدة فيما اختفت

بضاعات أخرى كالزيوت والكركار⁴ والعطور والزبدة والروب،
كثيرات كن هناك زبائنا وبائعات، مكية تخاطبهم بلوم: لسه
قاعدين تحت الشمس وفوق التراب؟ فيها شنو لو طالبتكم
الحكومة ولا المجلس البلدي يسوى الأرض ويزفلتها ولا يبني
سوق زي الناس ولو ما رضى تبرعوا وصلحوا السوق انتو.. خايفين
من الحكومة والحكومة ما خيفة ولا مستحبة منكم، معذبين
طول اعماركم والله حرام ويبقى الحال كما هو.. تتساءل:
إلى متى يا جماعة؟ علاقتكم بالحكومة ما علاقة كويسة لا هي
تسألکم ولا انتو تسألوها والبلد حالها واقف والسوق دا غضب الله
واقع عليه من ايام الانجليز ما اتغير، زايد خراب غيروا انفسكم اولاً
- مازالت تخاطب ناس السوق - غيروا حياتكم وما تنسلخوا من
جلودكم، تضيف في دعاية: اشتقت للمفروكة والكسرة، واللقمة
بالويكة والشاي بالنعناع لكن مصير الحي يتلاقى..

- تجول مكية بنظرها يمناً ويسرة وهي تمشي وموج النهر
يحاول جرفها كما يفعل بها في قديم الزمان، لكنه يصطدم بقوة
أرجلها وثبات أقدامها، هل انهزم النهر؟ إلى ركن قصي من حي
شمال الحلقة وجهت قبلتها، عرفت بيتا كانت تذهب اليه وهي في
العاشرة من عمرها تصطحبها أمها إلى هناك إنه بيت (ست الحور)
سيدة في متوسط العمر كانت تقيم حففت الزار التي تحضرها كثير
من النساء من الشرق والغرب، مكية كانت ترافق والدتها لتساندها
إذا ما فقدت وعيها في حالة الهياج والرقص التي تعم الجميع، لم
يكن والد مكية يعلم بأن زوجته تذهب إلى حفلات الزار، انها كانت

⁴ الكركار دهان للشعر ثقيل ومعطر يصنع في البيوت.

تذهب بلا اذن حيث كانت تخرج بحجج كثير كزيارة الطبيب مما يسمح لها بالغياب لساعات خارج المنزل، وتقضي أوقاتا ممتعة في الرقص الهستيري الذي تفرغ فيه كل الطاقة السلبية، تبكي بحرية وتضحك بلا توقف ربما تستدعي كل ملفات الحزن وتمر على شريط الألم تخرج ما في اعماقها، تدخن السيجارة بشراهة، تلبس الملابس التي تحب والألوان التي لا تجرؤ على لبسها، إنها تمارس طقوس الحرية المفقودة وتدعي انها مصابة بالزار، والزار ربما يكون نوعا من العلاج النفسي لحالة كهذه. هنا يسمح بإزاحة الكبت والتوتر وتفريغ الطاقات، نساء مقهورات وفاشلات احيانا، نساء كن يتمنين حياة غير هذه، كانت والدة مكية واحدة من هؤلاء النسوة اللاتي تسقطن من فرط الارهاق يعبرن عن آمالهن وطموحاتهن وعن حزنهن، هنا يتحدثن بشفافية عن عدم رضاهن عن علاقتهن مع ازواجهن، يبحن بما لا يقال، تهدئن الزعيمة أو شيخة الزار التي تعمل على ادارة الحفلة فتارة تغني لهن بالاثيوبي وتارة بإيقاع سوداني حزين واخرى بموسيقى غربية وهنا يتم سقيا النساء برشقات من الخمر المستورد..

- تذكرت مكية كيف تذبح الذبائح ويلطخ الدم على الأبواب وحيانا على جسد المريضة التي تأتي بالذبيحة، كانت تستمتع بالطقوس المسلية والمحنة لكنها تؤمن بانها علاج نفسي لأرواح متعبة أشبه ما تكون بالعلاج الجماعي وأجمل ما في حفلات الزار هو الأكل وتنوعه والفاكهة الكثيرة والغالية، تتذكر مكية كيف تتحدث أمها في الحفل الصاخب وتحت تأثير الموسيقى المبكية كيف تتحدث عن زوجها وسوء تعامله معها في السرير، كان يهددها بالقتل إذا لم تطعه، كان يمنعها من الخروج إلا للضرورة ولم

يخفف عنها إلا بعد أن صار ابناؤها كبارا وصارت مكية تلازمها في حلها وترحالها، صارت مكية خازن سر لوالدتها ولم تبج يوما بسرها إلى أن ماتت والدتها.. هذا البيت البعيد الكبير شهد ثورات الجسد الانثوي في زمن القمع السياسي والنفسي، زمن البطولات الوهمية والجفاف العاطفي، ومن خلال طقوس الزار كن يرفضن العنف ويمارسن حرية خاصة وان كانت محدودة، أضف إلى أن هذا البيت لا يدخله الذكور، حتى أبناء الشبيخة لهم باب آخر يدخلون لها في غير ايام الزار!

- بيوت أخرى تعرفها لكن صاحب القبر المجهول الذي كانت النسوة يتبركن به وأما احداهن يستحق هذا الولي المجهول أن تحييه ولا تطلب عنه كما كانت تفعل أمها والأخريات.

- ما زالت مكية تمشي وسط النهر، عندما بدأت الشمس تخرج رأسها من مخابأها وراء الجبل كانت مكية قد تجاوزت ثلثي المسافة، لم يكن الضوء كثيرا لكن مكية ترسل بأشعتها في كل الاتجاهات، بدأت المعركة تدب بين طرفي القاش شرقا وغربا، مكية تمشي وقد ملأ حضورها المكان، المدينة صارت أشبه بقريّة صغيرة أمام مكية، تمضي وعلى مقربة من الشاطئ وهي وسط الماء تشرق الشمس قوية على وجه مكة، تبدأ الخرافة في التلاشي وفي ضوء ذهبي بأطراف من لهب أحمر تتلاشى من رأسها ثم بقية الجسد، إنها تذهب نحو الشمس، إنها تتحول إلى ضوء لامع، ضوء ذهبي يصعب التركيز فيه، إنها تتماهى مع الشمس، إنها تتلاشى، تتلاشى، لا شيء يبقى كما هو، تتلاشى، تتلاشى تختفي في هدوء.

E-KUTUB
Publisher of publishers
Amazon & Google Books Partner
No 1 in the Arab world
Registered with Companies House in England
under Number: 07513024
Email: ekutub.info@gmail.com
Website: www.e-kutub.com
Germany Office: In der Gass 10,
55758 Niederwörresbach,
Rhineland-Palatinate
UK Registered Office:
28 Lings Coppice,
London, SE21 8SY
Tel: (0044)(0)2081334132

The west of Al-Ghash

By:
Mahasin Al-Hawati

تحرث هذه الرواية في أرض بكر. تستكشف
معالم بيئة اجتماعية في ركن قصي، لتصنع منها
عملا متميزا في بنائه ولغته ومقاربتة الحكائية.

أظهرت المؤلفة براعة واضحة في بناء عمل روائي
عذب وخصب وغني بالإمكانيات، حتى أنها
اندفعت لتضفي عليه طابعا اسطوريا ليس بعيدا
عن طبيعة بيئته نفسها.

هذه الرواية نافذة لعالم لم تدخله الرواية، ولكنه
من الغرابة والاختلاف حتى ليبدو وكأنه، بحد
ذاته، رواية بكر، تنتظر صائغها.

أدبية بعين نافذة، وحس خلاق، وسعة أفق،
كانت هي وحدها التي تمكنت من إعادة صياغته
في عمل يمتلك من جمال الواقع أكثر مما يمتلك
الخيال.

الناشر

آلاف الكتب، لكل وقت ومن أي مكان

